الباب الأول

نشأة ابن باديس الفكرية

الفصل الأول : مراحل حياته وشخصيته .

الفصل الثاني : العوامل التى شكلت تفكيره .

الفصل الثالث : ابن باديس المصلح الفيلسوف .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مراحل حياته وشخصيته

ابن باديس : هو عبدالحميد بن محمد المصطفى بن مكى بن باديس ولد بمدينة قسنطينة بالجزائر فى الخامس من ديسمبر عام ١٨٨٩م الموافق ١٣٠٨هـ.

وكانت أسرته معروفة بفضلها وثرائها واهتمامها بالعلم ، وكان لها تاريخها السياسى فى الحكم لأن والده وجده كانا من قضاة قسنطينة ،كما كان أحد أجداده الأوائل وهو : المعز بن باديس أحد ولاة المغرب بين عام ٩٧٢ – ٩٨٤م .الموافق ٣٦٣ –٣٧٣هـ . والذى كان ابن باديس يذكره كثيراً ويفتخر به.

ومنذ ميلاد ابن باديس حرصت أسرته على تلقينه علوم اللغة العربية والدين وإبعاده قدر الإمكان عن التعليم فى المدارس الفرنسية التى كانت منتشرة بالجزائر وقتذاك .

ولذا عهدت بتعليمه الأوّلى وخاصة حفظ القرآن الكريم إلى الشيخ محمد المداس والذى على يديه أتم ابن باديس حفظ القرآن وهو فى الثالثة عشرة من عمره.

وفى هذه الأثناء أيضا كان يتولى تعليمه ثلاثة من رجال العلم المشهود لهم فى قسنطينة وهم محمد الشاذلى القسنطينى وعبدالقادر المجاوى وابن الموهوب.. حيث بدأت على يد هؤلاء حياة ابن باديس العلمية ..

أولاً : مراحل حياته ..

ويمكن أن نميز فى حياة ابن باديس بين ثلاث مراحل هامة ، المرحلة الأولى وهى مرحلة نشأته فى قسنطينة وبداية التعلم ، والمرحلة الثانية وهى مرحلة تواجده بتونس لتحصيل العلم بجامع الزيتونة ورحلته إلى الشام والحجاز ومصر ثم المرحلة الثالثة وهى مرحلة كفاحه الأدبى والفكرى من أجل إصلاح مجتمعه

وتحقيق الوعى لطبقاته وهى المرحلة التى بدأت منذ عودته إلى الجزائر عام ١٩١٣ واستمرت حتى وفاته فى السادس عشر من إبريل عام ١٩٤٠م .

المرحلة الأولى :

يصف الدكتور عمار الطالبى لحظة ميلاد ابن باديس بلحظة الترقب والانتظار والأمل الذى يترقبه المجتمع الجزائرى والعربى فى ذلك الوقت ، ويقول : ومن ثم فإن تلك اللحظات التاريخية كانت تنتظر شخصية كشخصية ابن باديس تقوم بدور ثورى يعبر عما يختلج فى النفوس من قلق وأمل ويضىء الطريق أمام الحائرين ويجمع الشتات ويوجه الطاقات ويحيى الشخصية الإسلامية .. وهكذا جاءت الأيام بالمولود الجديد منقذ الأمة وقائدها لصنع مصيرها وخلق تاريخها[١] ..

وأهم ما تميزت به نشأة ابن باديس الفكرية فى المرحلة الأولى من حياته والتى بدأت منذ ميلاده فى الخامس من ديسمبر عام ١٨٨٩ وحتى بلوغه عامه التاسع عشر عام ١٩٠٨م : هو نبوغه المبكر فى علوم العربية والدين وحفظه للقرآن الكريم الذى أهله لإمامة الناس فى الجامع الكبير بقسنطينة وهو فى سن الثالثة عشرة من عمره ..

ثم اللقاء العابر بين الأستاذ الإمام محمد عبده والتلميذ ابن باديس بالجامع الكبير حيث كان الإمام محمد عبده فى زيارة لقسنطينة ونزوله بالجامع الكبير الذى كان يصلى فيه ابن باديس إماماً فى صلاة التراويح وكان عمره آن ذاك أربعة عشر عاماً..

حيث كان الإعجاب والتأثر بآراء محمد عبده الإصلاحية فى أنحاء الشمال الإفريقى وخاصة تونس والجزائر ..

---

(١) راجع : ابن باديس : حياته وآثاره : جمع وتحقيق الدكتور عمار الطالبى المجلد الأول – الجزء الأول ص ٧٢.

وفى هذه المرحلة أيضا كان اهتمام ابن باديس بعلوم اللغة والدين والتفسير والفقه والأخلاق والتى بدأ دراستها على يد الشيخ احمد بن حمدان لونيس قبل سفره إلى المدينة المنورة لتدريس مادة الحديث هناك . ثم على يد بعض رجال العلم والدين فى قسنطينة أمثال : الشيخ محمد الشاذلى القسنطينى وعبدالقادر المجاوى وابن الموهوب الذى كان ابن باديس يواظب على حضور ندواته ومحاضراته وتأثر بآرائه ثم أصبحا صديقين فيما بعد ولم يفترقا إلا بعد أن تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣٠م . .

وهكذا كانت نشأة ابن باديس الأولى فى بيت علم ودين وورع لأن أسرته كانت تنتمى إلى الطريقة القادرية سالكا طريق أجداده من السلف الأعلام فى الدين والسياسة والجهاد .

المرحلة الثانية : ابن باديس في تونس

هذه المرحلة بدأت عام ١٩٠٨م عندما سافر ابن باديس إلى جامع الزيتونة بتونس ليدرس العلوم الإسلامية على يد شيوخها أمثال محمد النخلى القيروانى ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور والخضر بن الحسين الجزائرى الذى درس ابن باديس عليه دروساً فى المنطق من كتاب «التهذيب» للسعد ، كما أخذ عنه دروساً فى التفسير من كتاب الإمام «البيضاوى» .

وكان الشيخ محمد النخلى القيروانى المتوفى عام ١٩٢٤م هو الذى قرظ الرسالة التى ألفها ابن باديس فى الرد على عليوه الصوفى .

أما دراسته اللغوية وباقى العلوم الإسلامية فقد تتلمذ فيها على يد الشيخ احمد أبوحمدان لونيس الذى كان له التأثير الكبير فى توجهات ابن باديس الإصلاحية والأخلاقية ..

وعندما أتم ابن باديس دراسته بجامع الزيتونة عام ١٩١٢ حصل على شهادة

التطويع وكان عمره يناهز الثالثة والعشرون ، وفى نفس العام قام ابن باديس بالتدريس فى جامع الزيتونة لمدة عام على عادة الخريجين من الجامع فى ذلك الوقت وفور انتهاء ابن باديس من عامه التدريسى بجامعة الزيتونة بتونس وحصوله على شهادة التطويع ودراسته لفنون اللغة والتفسير والمنطق والأدب والفقه وغيرها عاد إلى الجزائر متحمسا للتدريس ، وبالفعل بدأ بإلقاء الدروس فى الجامع الكبير بقسنطينة ثم تدريس كتاب الشفاء للقاضى عياض ..

ولكن بسبب بعض الصعوبات ومكائد الأعداء شعر بالإحباط فقرر السفر فى رحلة علمية إيمانية إلى بلاد المشرق العربى ليلتقى بعلمائها ويدرس على الواقع أحوالها..فبدأ رحلته بالحجاز وهناك التقى بشيخه وأستاذه حمدان لونيس ، وألقى ابن باديس درساً بالحرم النبوى الشريف على عادة العلماء فعرفه الناس من يومها وأوصى الشيخ حمدان ابن باديس بمقابلة الشيخ بخيت شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت وسلمه رسالة له .. والتقى ابن باديس بالشيخ بخيت فى منزله ، وبعد الإلتقاء والمناقشة عرف الشيخ بخيت مدى تعمق ابن باديس فى مختلف العلوم فأجازه الشيخ بخيت بشهادة العالمية الأزهرية ..

ثم زار ابن باديس بلاد الشام ولبنان والتقى بعلماء الشرق هناك وتعرف عن قرب بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية ومدى حاجة الأمة العربية إلى الإصلاح والنهضة واليقظة[١] .

وهذه المرحلة التى بدأها ابن باديس منذ عام ١٩٠٨م فى تونس ثم رحلته إلى الشام والحجاز ومصر حتى عودته إلى الجزائر عام ١٩١٣ يصفها الأستاذ عمر ابن قنية بقوله : إن هذه المرحلة كان لها خطوات محددة رسمها ابن باديس بدقة، ففى الخطوة الأولى كان التكوين والاستعداد من خلال بلورة الحركات الإصلاحية

---

(١) آثار ابن باديس : جـ ١ ص ٨٠ – ٨٢ .

الموجودة فى الشمال الإفريقى وخاصة فى تونس والجزائر وتقييمها والتعرف على أصولها والعقبات التى تعترض تنفيذ برامجها الإصلاحية ، حيث لاحظ ابن باديس فى هذا الإطار محاولة الإصلاح التى تزعمها احمد بن عمار صاحب كتاب (نحلة اللبيب فى الرحلة إلى الحبيب) والذى قال : وأسفاه على عصر ساد فيه الجمود والتقليد ، ثم حركة الإصلاح التى تزعمها محمد بن محمود بن حسين الجزائرى المعروف بابن العنانى صاحب كتاب (السعى المحمود فى نظام الجنود) وفيه دعا إلى الاقتباس من الأجانب والعمل على سبقهم ،كما ألح على ضرورة التغيير فى نواحى الحياة الاجتماعية[١] .

وهذا ما يؤكد تأثير وتأثر ابن باديس بالبيئة الثقافية والاجتماعية سواء فى المشرق العربى أو المغرب العربى ومدى تأثره بالدعوات الإصلاحية وزعماء النهضة وأنصارهم وخاصة أستاذية محمد الطاهر بن عاشور ومحمد النخلى ودورهما الكبير فى تكوين شخصيته وإتجاهه العقلى وهذا ما سيتضح تفصيلاً فيما بعد .

المرحلة الثالثة :

بدأت منذ عودة ابن باديس إلى الجزائر عام ١٩١٣ وحتى وفاته فى السادس عشر من إبريل عام ١٩٤٠م .

وسميت هذه المرحلة بعدة مسميات ..فهى : مرحلة العمل التربوى لأن ابن باديس بدأها بتعليم النشئ مبادئ اللغة والدين وعلوم القرآن ..

وهى مرحلة إصلاح العقيدة والمجتمع لأن ابن باديس بدأها بمواجهته الحاسمة للطرقية والكثير من العادات والخرافات السائدة فى مجتمعه وهى مرحلة الجهاد والكفاح العملى من أجل الاستقلال والحرية لأن ابن باديس بدأها برفع شعار التحرير والنهضة ..

---

(١) عمر بن قنية : ابن باديس : رجل الإصلاح والتربية ص ١٧ – ١٩.

وهى مرحلة البناء الأدبى والثقافى وتحقيق الوعى لأن أهم ما يميز هذه المرحلة هو إصدارات ابن باديس الصحفية واهتمامه بفنون الأدب والمناهج التربوية ومقاومة البدع الاجتماعية التى تعوق الوعى الاجتماعى المطلوب ، وفى هذا الإطار كان اهتمامه بما تكتبه الصحافة الغربية وخاصة الفرنسية عن العرب والجزائر فكان ينقل ما يكتبون ثم يعلق عليه ويرد ..

ويصف ابن باديس فى إحدى مقالاته بداية هذه المرحلة وملامح العمل فيها فيقول : «لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام ١٣٣٢هـ ، ١٩١٣م وعزمنا على القيام والتدريس أدخلنا فى برنامج دروسنا تعليم اللغة وآدابها والتفسير والحديث والأصول ومبادئ الجغرافيا والتاريخ والحساب ومضينا على ما رسمنا من خطة وصرنا إلى ما قصدناه من غاية ، وقضينا عشر سنوات فى الدرس لتكوين النشئ تكوينا علمياً .. فلما كملت العشر وظهرت بعون الله نتيجتها رأينا واجب علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة وهدى صالح سلف الأمة وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات فكان لزاماً علينا أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس»[١] .

وهكذا وضع ابن باديس أسس منهجه الإصلاحى وحدد وسائله فى التفسير والتحليل والتدريس والصحف وتأسيس الجمعيات العلمية والاهتمام بالإنسان عقلاً وروحاً وبدنا لأنه أساس المجتمع السليم والسعى لبناء جيل جديد واع ومتعلم ليتحمل مسئولية الدعوة والإصلاح .

من أجل ذلك أصدر ابن باديس العديد من الصحف ابتداء بالمنتقد الذى صدر عام ١٩٢٥م ثم المجاهد الثقافى والمجاهد الأسبوعى والشعب وجميعها صدرت عام ١٩٢٥ . وفى عام ١٩٢٩ أصدر جريدة الشهاب (فبراير ١٩٢٩- رمضان

---

(١) راجع : ابن باديس : حياته وآثاره ، الجزء الأول.

١٣٤٧) ثم الشريعة والصراط عام ١٩٣٣ التى استمرت حتى يونيو ١٩٣٤ وفى عام ١٩٣٥ أصدر ابن باديس مجلة البصائر تحت رعاية جمعية العلماء المسلمين التى كان ابن باديس رئيساً لها .

وكانت هذه الصحف هى الوسيلة الفعالة لنشر مبادئه الإصلاحية وتعاليمه الدينية ، والقيم والأخلاقيات والمبادئ التى كان ينشدها ويرمى لتحقيقها وفى مقدمتها الحق والعدل والمؤاخاة فى إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات .

وكانت هذه الصحف هى وسيلة لتقويم الواقع بعناصره السلبية والإيجابية وتصحيح المفاهيم والمعتقدات الزائفة ، فكانت آراؤه لإصلاح العقيدة والمجتمع وبها تخطى ابن باديس حدود مجتمعه وانتشرت آرائه شرقا وغربا فتعرف العرب على آراء ابن باديس فى التفسير والتاريخ والدين والمجتمع وتعرفوا على دوره الإصلاحى ودليل ذلك قول الأستاذ محمد المبارك من سوريا ، بأن كانت تصلنا جريدة الشهاب ثم البصائر ونقرأها بلهفة شديدة متطلعين إلى أخبار قطر عربى مسلم كان معروفا ومشتهراً عنه أن اللغة العربية أصبحت مجهولة فيه[١] .

ولذا قيل أن ابن باديس كان داعية للأخذ بثقافة العصر وجوانب الإبداع من كل تراث ، وأنه كان حريصا على تحقيق التوازن بين المحلية والعالمية سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للجماعة[٢] .

وفى هذه المرحلة قام ابن باديس بتجميع وبلورة الأفكار الإصلاحية السابقة عليه وإعدادها للتطبيق ، وبدأ اتصاله الفعلى وترابطه مع حركات الإصلاح الدينى والخلقى الموجودة فى باقى أنحاء العالم العربى وخاصة فى مصر حيث ظهر تأثره

---

(١) راجع : عمر بن قنية : ابن باديس رجل الإصلاح والتربية ص ٣٠/٧ ، وفى مقال تركى رابح فى مجلة الأصالة : ابن باديس والشخصية الجزائرية ص ٣٨/٦٧ .

(٢) محمد الميلى : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٥٢ ، ٨٥ .

الواضح بالاتجاهات الإصلاحية التى بدأها محمد عبده ورشيد رضا ..

ويصف الدكتور محمد البهى فى مقدمة التفسير الباديسى هذا التأثير بقوله: إن عبدالحميد بن باديس حلقة فى سلسلة ابتدأت بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى القرن التاسع عشر ، وثنت برشيد رضا فى القرن العشرين ،إنه واحد من أولئك الذين رأوا فى الإسلام نظاما لحياة الإنسان لأنه إنسان فى أى وقت وفى أى مكان[١] .

ويعترف المستشرق الإنجليزى جيب بهذا التأثير الإصلاحى بقوله : إن جمعية العلماء المسلمين التى تأسست فى الجزائر برئاسة ابن باديس كانت مهمتها نشر مذهب المنار ، وكانت الجمعية تعارض بصفة خاصة المرابطين والطرق الصوفية ، وذهب الجزائريون أبعد مما ذهب إليه حزب المنار[٢] .

أما ماسنيون فيصف الحركة السلفية التى يمثلها ابن باديس وزملاؤه بأنها حركة متشددة نصف وهابية ويعتبرها فرع للحركة التى تمثلها المنار فى القاهرة ، ويؤكد على أن ابن باديس كان وثيق الصلة بالحركة فى مصر مترسم لخطاها ، وأن هذه الحركة السلفية كان لها تأثيرها لما ينطوى عليه برنامجها من الرجوع إلى تعاليم القرآن ..بل يرى أيضا أن لحركة ابن باديس أتباع في الرباط من أعمال مراكش ..

ويعتبر مالك بن نبى (زميل ابن باديس وتلميذه فى نفس الوقت) أن صوت جمال الدين الأفغانى كان له الأثر الفعال فى انبلاج فجر النهضة الجزائرية .. وأن معجزة الحياة فى الجزائر بدأت بصوت الشيخ عبدالحميد بن باديس وندائه فأيقظ

---

(١) مقدمة التفسير ص ٨

(٢) راجع : تركى رابح : ابن باديس والشخصية الجزائرية ومجلة الأصالة ٤ ص ٦٧ – محمود قاسم: ابن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية ص ٤٤ / ٤٥. – ابن قنية : ابن باديس رجل الإصلاح والتربية.

المعنى الاجتماعى وحول مناجاة الفرد إلى حديث الشعب[١] .

وإذا كانت هذه المرحلة من حياة ابن باديس هى أهم مراحل حياته العملية الناضجة فقد أمكن تقسيمها إلى مرحلتين هامتين :

– **المرحلة الأولى** : وهى مرحلة النظر والدراسة ووضع قواعد المنهج وتأصيل المبادئ الأخلاقية والتربوية وهى التى استمرت منذ ١٩١٣ وحتى ١٩٢٥.

– **المرحلة الثانية** : وهى مرحلة التطبيق العملى لهذه الآراء والمناهج فى المجال الاجتماعى والسياسى من خلال الصحف والخطب والمواقف والمقالات وهى التى استمرت منذ عام ١٩٢٥ وحتى وفاته فى إبريل عام ١٩٤٠م.

وكان يميز المرحلة الأولى (النظرية) اهتمام ابن باديس بدروس التفسير والحديث حتى أنه أتم تدريس وتفسير القرآن درساً على مدى خمسة وعشرون عاماً لاعتقاده الراسخ بأن إحياء القرآن على طريقة السلف هو إحياء للأمة التى تدين به.

وإلى جانب التفسير والحديث اهتم ابن باديس بدراسة وتحليل الحضارة الإسلامية ومبادئ العلوم الحديثة اللازمة للشباب وخاصة علوم الحساب والجغرافيا.

وفى هذه المرحلة أيضاً ظهرت سلفية ابن باديس وتمسكه بالعقل والدعوة إلى ضرورة استخدامه فى كل أمور الحياة سواء اقتصادية أو علمية أو دينية ولهذا كان منهجه الذى سار عليه فى هذه المرحلة هو :

١– ضرورة الدعوة والتمسك بالإسلام الحقيقى الذى أسماه الإسلام الذاتى، وبالعلم الصحيح المتفق مع ما جاء به الكتاب والسنةوصالح سلف الأمة وذلك لاعتقاده بأن الفكر الإسلامى الأصيل كان دائما وراء نجاح وتطور الأمة وهو

---

(١) راجع : آثار ابن باديس جـ ١ ص ٦٣ / ٦٧ ، مالك بن نبى : شروط النهضة ومشكلات الحضارة.

سر حيويتها وباعث نهضتها ولذا كان هذا الفكر بوضوحه وأصالته هو الأداة الفعالة فى نجاح الأمة العربية واستقلالها .

٢-ضرورة تحرير سلطان العقل من الخرافات والبدع التى أدخلها أصحاب الطرق الضالة ، والبعد عن عوامل الجمود والتحجر وذلك بالاعتماد على العلم وحده والأخذ بالأسباب الحقيقية والموضوعية وعوامل التقدم والتطور .

٣- ضرورة الدراسة العلمية المنهجية لتاريخنا وتراثنا لاستلهام العبرة منه ورسم طريق المستقبل والكشف عن عوائق النمو الحضارى وكيفية التغلب عليها.

أما المرحلة الثانية (العملية) فهى مرحلة الانتقال من العمل التربوى والإصلاح الدينى والخلقى إلى مرحلة العمل السياسى والاجتماعى والتأثير المباشر فى الوعى الاجتماعى ..وكان من أبرز أحداث هذه المرحلة :

١- استخدامه للصحافة والكتابة سلاحاً للقضاء على التخلف والجهل ، وظهور ارتباط تفكيره السياسى مع تفكيره الإنسانى وارتباط هذين مع تفكيره الإصلاحى الشامل لقضايا الدين والمجتمع ، وقد صرح ابن باديس بهذه الحقيقة فى محاضرة ألقاها بتونس فى ذكرى البشير صفر حين قال : لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ولا ينهض العلم ولا الدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق[١] .

٢- أصبحت قضية الاستقلال والحرية فى مقدمة القضايا التى سعى لها وجاهد فى سبيلها باعتبارها الغاية القصوى التى من أجلها :

- شارك فى جميع الأحداث السياسية وفى مقدمتها المؤتمر الإسلامى عام

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره ، عمار الطالبى جـ ١ م ١ ص ٨٨ وفى البصائر العدد ٧١ السنة الثانية عام ١٩٣٧.

١٩٣٦. حيث أكد أن الإستعمار ورجال التبشير والتنصير وأصحاب الطرق الضالة ودعاة التجنيس والأندماج والفرنسة كلها من عوامل التخلف التى يجب مواجهتها.

– حاول تجميع الأفكار الإصلاحية والقوى الوطنية لمواجهة عوامل تدهور المجتمع وغياب الوعى ومن أهمها : فصل العقيدة عن العمل وعدم الفهم الصحيح للعقيدة والبعد عنها وتطرق الشرك الخفى .

– حاول إقامة نهضة فكرية عن طريق مخاطبة العقل والوجدان وفتح الأذهان والاعتماد على العلم والبحث المنهجى وبث روح الحكمة والفلسفة فى نفوس المواطنين .

– حاول إقناع الجميع بأن الاستقلال حق طبيعى لكل أمة من أمم الدنيا وقد استقلت أمم كانت دوننا فى القوة والعلم والمنعة والحضارة ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد ، فكلما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أن يأتى يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقى المادى والأدبى وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة والفرنسية خاصة وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة إستقلالاً واسعاً تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر[١].

وكان إصراره على المطالبة بالاستقلال والدعوة إلى الثورة وتشجيعها فكان يردد لزملائه عاهدونى إنى سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشن عليها إيطاليا الحرب.. وهل يمكن لمن شرع فى تشييد منزل أن يتركه بدون سقف ، وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال .

---

(١) الشهاب جـ ٣ م ١٢ عدد جوان ١٩٣٦، ص ١٤٥، ١٤٦، وفى آثار ابن باديس جـ ١ م ١ ص ٩٠.

٣- إستطاع ابن باديس أن يحدد ملامح الفكر الإسلامى ومجالات العمل التى تحقق الوعى والنهوض الحضارى ، وقدم فكراً يتميز بالمرونة والعقلانية والقابلية للتطبيق بالإضافة إلى صفة الشمول التى تميز فكره ومنهجه الذى يشمل الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية وأن هذا الفكر يتميز بالتفسير الصحيح والتحليل المنطقى سواء لقضايا الواقع العملى وكذلك لآيات القرآن والحديث ، وهذا يفسر اهتمام ابن باديس بالقضايا المتعلقة بالعلية وعلاقة الإنسان بالخالق سبحانه ، وهذا ما ظهر عند معالجته لقضايا الحرية الإنسانية والعلم والفاعلية والجزاء والإرادة وغيرها ..

وقد وصف ابن باديس بداية منهجه بوضوح حين قال :

إننا نربى تلامذتنا من أول يوم على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن فى كل يوم سواء بتفسير الآيات أو شرح الحديث وإعداد الدروس .

كما أكد على أن هذا المنهج القرآنى هو السبيل لتحقيق النهوض الحضارى والتغير الاجتماعى لاحتوائه على منهج الاستدلال فى الرد والحجاج وأنه المنهج الذى يتلاءم مع الفطرة الإنسانية .

٤- فى هذه المرحلة ظهر التأثير الواضح لأفكار زعماء الإصلاح أمثال الكواكبى والأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا .

وهو ما سيتم تفصيله لاحقا عند الحديث عن مكونات تفكير الإمام ابن باديس .

ثانياً : شخصيته وأهمية دراسته :

شخصية ابن باديس التى تتميز بالتكامل والثراء والعقلانية والشمول وصفها لنا بدقة أصدقائه وتلاميذه ومن ساروا على نهجه وتأثروا بآرائه ، فمنهم من تناول شخصيته فى تكاملها وشمولها وتحدثوا عن ابن باديس المؤرخ والمصلح والسياسى والوطنى وفى مقدمة هؤلاء مالك بن نبى وعمار الطالبى ، ومنهم من تناول شخصية ابن باديس الثائر والمكافح وفى مقدمتهم الدكتور قاسم فى كتابه : عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية ،ومنهم من تناول شخصيته التربوية مثل عمر بن قنية فى كتيبة : عبدالحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية ومنهم من تناول شخصيته الأدبية مثل محمد العيد آل خليفة وغيره ومنهم من تناول شخصيته العلمية والدينية مثل زميله الشيخ البشير الإبراهيمى . وهو الذى يصف نشأته وشخصيته المتكاملة حين يقول: إن عبدالحميد بن باديس كان من أعلم علماء الشمال الإفريقى وبانى النهضة العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية فى الجزائر وأنه عندما أشفق على ينبوع الثقافة الإسلامية أن يصد تياره بما تراكم فيه من غثاء وحطام فانبرى بالتدريس والإصلاح فجعل للإسلام الغنى الواضح قولاً فى كل مسألة ورأيا فى كل معضلة وتوجيهافى كل قصد[1].

ويعتبر مالك بن نبى ثم عمار الطالبى فى مقدمة من قدموا شخصية ابن باديس فى شمولها وثرائها ونبهوا إلى أهمية دراسته ودوره الفعال فى تقديم المنهج الإسلامى الصحيح .

وقد أشار الأستاذ مالك بن نبى عند تقديمه لكتاب آثار ابن باديس فى المجلد الأول ، أشار إلى التنوع والشمول فى شخصية ابن باديس وما تميزت به من قدرة على الإقناع والمناظرة كما أشار إلى تماسك منهجه ودوره الفعال فى بناء

(١) راجع مقدمة تفسير ابن باديس ص ٧٦/٧٧، وتركى رابح : ابن باديس والشخصية الجزائرية.

الشخصية الجزائرية والتاريخ المغربى بوجه عام ..وجاء فى وصفه إن شخصية ابن باديس تجمع فى طياتها جوانب بلغت من التنوع والغنى مبلغا عظيما ، فقد كان مناظراً مفحماً ومربياً بناءً ومؤمناً متحمساً وصوفيا والهاً ومجتهداً يرجع إلى أصول الإيمان المذهبية ، ويفكر فى التوفيق بين هذه الأصول توفيقا عذب عن الأنظار إبان العصور الأخيرة للتفكير الإسلامى ..

ولم يفصل مالك بن نبى بين شخصية ابن باديس العلمية والدينية وبين شخصيته التربوية والسياسية ، ويؤكد على أن وطنية ابن باديس كانت وراء مشاركته فى الأحداث البارزة بين عام ١٩٣٤، ١٩٣٦م كما كانت وراء نجاحه فى إيقاظ الشعور الوطنى العام وأن قصائده ومقالاته هى التى أعادت إلى الشعب الجزائرى أبعاده الحقيقية فى التاريخ الإسلامى .

كما أكد على تكامل شخصية ابن باديس المفسر السلفى الذى يستنبط من الآيات والأحاديث فروعاً ومعانى للهداية والحجة والاقتداء وإثبات لزوم الرجوع إلى الكتاب والسنة ،وأن الإصلاح الحقيقى يبدأ بإصلاح النفوس والضمائر إيماناً بالحقيقة الصادقة ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[١] فتلك أول خطوات الإصلاح الحقيقى .

ويصف مالك بن نبى شخصية ابن باديس المفسر حين يقول :

إنه عندما يفسر إنما يمدنا بصورة ما من طيف ذاته ، فالذى يتكلم إنما هو الذاب عن الدين والناقد الاجتماعى والعالم المحقق والمصلح.. الذى يعبر عن الحقيقة القرآنية بوصفها حقيقة متكاملة تشمل الحياة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أو ما يعبرون عنه بالدين والدولة أو الدين والدنيا معاً[٢].

---

(١) الرعد : ١١ .

(٢) راجع مقدمة : ابن باديس حياته وآثاره د/ عمار الطالبى م ١ جـ ١، طبعة الجزائر عام ١٩٦٦، ص ١١/٩.

ويحدثنا الدكتور عمار الطالبى عن شخصية ابن باديس فى شمولها وثرائها وقدرته الفائقة فى التعبير عن أزمة المجتمع العربى ، وأنه فى هذه الملامح لا تداتى شخصيته سوى شخصية جمال الدين الأفغانى ثم يتناول جوانب شخصية ابن باديس مع التركيز على الناحية العلمية والتربوية وقدرته على فهم مكنونات النفس البشرية والتعامل مع العصر وفهمه العميق لمتغيرآت الواقع وثوابته ، ويؤكد ذلك الدكتور الطالبى فيقول :

إن ابن باديس قدم تفسيراً سلفياً للقرآن راعى فيه مقتضيات العصر معتمداً على بيان القرآن للقرآن وبيان السنه له وعلى أصول البيان العربى وسننه والنفاذ إلى لغة العرب وآدابها وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الإنسانى وتطور التاريخ والأمم.

.. وهو فقيه ومحدث من الطراز العالى لا يستشهد إلا بالآحاديث الصحيحة المسندة إلى الصحاح الست[١] .

وفى هذا الإطار ظهرت منهجية ابن باديس فى رد الفروع إلى الأصول والأصول إلى مستنداتها مؤكداً على أن كتاب الموطأ لمالك هو خير مناهج الاستدلال .

* وهو شاعر يفيض الشعر من قلبه، وخطيب يستولى على النفوس ويملك العقول.

* وهو مصلح دينى واجتماعى يحارب التقليد والبدع ويدعو للنهضة والحضارة ويغرس الحب وأصول الأخلاق التى هى جوهر المدنية وهذا ما يؤكده ابن باديس بنفسه حين يقول : أنا زارع محبة ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أى جنس كان ومن أى دين كان ، فاعملوا

---

(١) راجع فى ذلك : ابن باديس : من هدى النبوة فى شرح وتفسير الأحاديث النبوية.

للأخوة ولكن مع كل من يعمل للأخوّة فبذلك تكون الأخوّة صادقة[١] .

* وهو صحفى قدير يقضى ليله فى قراءة المقالات والجرائد وما صدر فى الدول العربية والأوربية عن العرب والمسلمين باللغة الفرنسية فيرد عليها ويناقشها.

* وهو مؤرخ يحلل الحضارة ويكتب فى أصول السياسة الإسلامية وله نقد لبعض آراء ابن خلدون فى المقدمة وهو الجزء الخاص بالحضارات.

* وهو صوفى زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه وزهادهم، ويتأثر كثيراً بآراء الغزالى فى الإحياء حتى أنه أطلق على كتاب الإحياء (كتاب الفقه النفسى، كما تأثر بأبى بكر بن العربى وخاصة كتاب العواصم من القواصم والذى نبهه إلى أهميته أستاذه النخلى القيروانى، فاستنسخه ابن باديس وحققه وطبعه على نفقته الخاصة ..

* وهو صاحب منهج تحليلى يقوم على النظر العقلى استجابة لدعوة القرآن إلى النظر فى تجارب الأمم وتطورات الأحداث وما تخضع له من سنن وقوانين لا تبديل لها ولا تحويل، وكان يعتقد بأن المدارك الإنسانية التى تمتاز بقوة التحليل والتركيب هى التى تجعلها تتغلب على الطبيعة وتسخرها وأن الظواهر الاجتماعية تخضع لمبدأ الأسباب والمسببات وأنه لا ينبغى الوقوف عند مجرد المحسوسات .. فالجمع بين المشاهدة والعقل هو المنهج العقلى والتجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة .. وفى هذا يقول ابن باديس : لقد علمنا الله ألا تنظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية بل نعبر من الظواهر إلى البواطن وننظر من المحسوس إلى المعقول ونجعل من حواسنا خادمة لعقولنا ونجعل عقولنا هى المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير[٢] . .

---

(١) من كلمته فى حفل ختام تفسير القرآن بكلية الشعب بقسنطينة ١٩٣٨م .

(٢) راجع مقالات ابن باديس فى المنتقد والشهاب – وفى آثار ابن باديس م ١ جـ ١ ص ٩–٩٧.

ثالثاً : أهمية دراسة ابن باديس :

ترجع أهمية دراسة ابن باديس إلى أنه :

١- هو المدخل الرئيسى لأى دراسة علمية أو تربوية تتعرض للحياة العقلية والثقافية للمغرب العربى فى العصر الحديث ، وهو الشخصية المحورية للثقافة العربية عامة بما قدمه من آثار وأفكار فى العلوم الإسلامية والتربوية ، بالإضافة إلى مجال الأخلاق والسياسة والبناء الاجتماعى بوجه عام والتى كان لها أثرها الفعال فى النهضة والثقافة والاستقلال.

٢ - هو النموذج الحى المعبر عن التفكير الإسلامى المعاصر الذى يجمع فى اقتدار وفهم بين السلفية والمعاصرة بوصفها سمة بارزة من سمات الفلسفة الإسلامية والامتداد الطبيعى الذى قدمه رجال الفكر الإسلامى ابتداء من الكندى والفارابى وعلماء الكلام من أشاعرة ومعتزلة وأهل سنة وغيرهم ..

٣ - هو الذى قدم المنهج الإصلاحى الشامل وفق خطوات محددة وواضحة بدأت بدراسة الواقع الفعلى بعناصره السلبية والإيجابية، ثم التحليل العلمى والمنطقى لقضايا المجتمع السياسية والاجتماعية، ثم تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيق الإصلاح وبعث الشخصية العربية فكان يستخلص من كل قضية المبادئ العامة التى تقوم عليها والأسس التى يجب الالتزام بها وفى مقدمتها الحق والعدل والمؤاخاة فى إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات[1] .

٤ - هو واحد من رواد الفكر والثقافة فى العالم العربى، وأحد الأفذاذ الذين حملوا مشعل الحضارة والعلم والنهضة والتنوير، فلابد من الاهتمام به ودراسته لأن فى ذلك اهتمام بدراسة جانب هام من تراثنا الفكرى والحضارى، ويعكس الطابع الشمولى فى التفكير الإسلامى حيث تنوعت اهتمامات ابن باديس لتشمل كل

---

(١) محمد الميلى : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٢٢ / ٢٣، ٤٠ ط ١٩٧٣.

جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية، فهو رجل دين ومفسر ومصلح اجتماعى وأخلاقى وفيلسوف إسلامى وفوق ذلك هو أديب وصحفى ومفكر عملى وناثر وطنى[١] .

* فهو كرجل دين كان له منهجه فى الإصلاح الدينى والروحى يبدأ بإصلاح النفس ومكوناتها الأساسية وفى مقدمتها الضمير والعقل والإرادة وأن هذا المنهج لا يقل بحال عن منهج الإمام محمد عبده ورسيد رضا وغيرهم ممن سبقه فى مجال الإصلاح ليؤكد من خلال تفسيره للقرآن والحديث على أهمية وعالمية التفكير الإسلامى ودوره فى إمكان تحقق الوحدة والقوة والسلام.

* وهو كرجل سياسى كان له دوره الفعال أيضا فى بناء وطنه ونهضته وساهم من خلال صحافته ومقالاته ومواقفه فى بناء الوحدة والشخصية والقومية... وحدد بوضوح قواعد ونظام الحكم الإسلامى وكيفية تطبيقه والاستفادة من تاريخ وحضارة الدولة العربية الإسلامية .

* وهو كفيلسوف أثبت أن هناك فلسفة إسلامية قرآنية يجب النظر إليها نظرة جديدة ودراستها بعناية لوضعها فى مكانها الصحيح بين فلسفات العصر الحديث .. كما كان له موقفه من المشكلة الأخلاقية وتكوين الخلق ، وهو موقف يقوم على الربط بين الأخلاق والدين وهو ما يتعارض مع بعض المدارس الأخلاقية التى ترى ضرورة فصل الأخلاق عن الدين وفسروا السلوك من هذه الناحية .

* فكان ابن باديس مصلحاً ومفكراً وفيلسوفاً عملياً يقول ويفعل ما يقول، ويؤمن ويطبق ما آمن به ،وهنا تكمن عظمة ابن باديس وعظمة الفكر الإسلامى

---

(١) أنور الجندى : الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال إفريقيا – الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٥، ص ٥٤ / ٥٨.

الخالص أيضا[١] .

* وإذا كانت هذه الجوانب تعكس أهمية دراسة ابن باديس عموماً فإن هناك عدة دوافع شخصية كانت وراء اهتمامى الخاص بابن باديس ودراسة آرائه وفى مقدمتها :

أولاً : إن الدراسات السابقة التى تناولت ابن باديس ركزت على الجوانب التاريخية والسياسية وآرائه فى التربية والتعليم ومكونات شخصيته العلمية ، وذلك دون الاهتمام بالجانب الفلسفى فى تفكيره المرتبط بالمناخ الثقافى العام فى النصف الأول من هذا القرن ولذا وجدت من الضرورى دراسة الجوانب الفلسفية فى فكره والبحث عن روافدها عند الغزالى وأبو بكر ابن العربى قديما وعند محمد عبده حديثا.

ثانياً : إن الاهتمام بابن باديس ودراسته كان استجابة لمتطلبات واقعنا الثقافى والاجتماعى ، وما يعانيه من صراعات أيديولوجية وتضارب المفاهيم وظهور جماعات أنصاف المثقفين ، وصراعات مذهبية وحزبية ، وانتشار بعض النزاعات الإلحادية والمادية وظهور بعض القوى العنصرية المعادية للتيارات الدينية وخاصة الإسلام .

ذلك هو الذى دفعنى لمحاولة استلهام آراء ابن باديس فى العديد من القضايا والمفاهيم ، وضرورة استخدام العقل فى فهم حقائق الدين والجمع بين النظر والعمل الذى يحقق كمال الإيمان .

ثالثاً : إن الاهتمام بابن باديس ودراسته كان استجابة لنداءات عديدة وجهها إخواننا فى الجزائر والشمال الإفريقى بضرورة تقديم دراسة متكاملة عن آراء ابن باديس، تكشف عن مكنون منهجه وصميم تفكيره وكيفية الاستفادة من آرائه

---

(١) محمد الميلى : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٢٢ / ٢٣، ٤٠ ط ١٩٧٣ .

التى أصبحت -بلا شك -تمثل تراثاً فكرياً يجب أن نعتنى به ونبرزه ونستلهمه فى دراساتنا .

رابعاً: إن السبب الأول الذى دفعنى إلى اختيار ابن باديس موضوعاً للدراسة والبحث هو إعجابى الشخصى الحقيقى بآرائه ومنهجه والذى تعرفت عليه من خلال محاضرات أستاذنا الدكتور يحى هويدى التى ألقاها على طلبة السنة التمهيدية للماجستير عام ١٩٧٤. وكانت بعنوان «الوعى العربى المعاصر» حيث تعرض باستفاضة لابن باديس كرائد من رواد الوعى العربى المعاصرين وموقعه بينهم ودوره البارز فى النهضة الفكرية والإصلاح الدينى والاجتماعى وكيف عبرت آرائه بصدق عن واقع المجتمع ، وكيف كان على وعى حقيقى بقضايا العصر ، وكيف أثبت أن هناك وعياً مفقوداً يجب أن يعود ووعيا عربيا يجب أن يستيقظ وينبعث فى النفوس والعقول .. وأن هذا الوعى لا يقوم على تقليد الحضارة الغربية بل وعى يبدأ من الذات الحقيقية للإنسان العربى ومن إيمانه العميق بحقائق العقيدة وتطبيق الاعتقاد .

ومن هذا المنطلق تولدت رغبتى وكانت استجابتى لتوجيهات أستاذى الدكتور يحى هويدى بضرورة الاستفادة من آراء ابن باديس فى العقيدة والفلسفة والتاريخ ووصفه الدقيق لمستقبل الإنسان العربى وتحليله لواقع الأمة وعوامل قيامها ونهضتها .

الفصل الثانى

العوامل التى شكلت تفكيره

فى كلمة ابن باديس بمناسبة ختم القرآن حدد بنفسه مجموعة العوامل التى كان لها أثرها فى تشكيل شخصيته وتكوينه الفكرى وحصرها فى أسرته وبيئته الثقافية ، وأساتذته وزملائه ، والواقع العربى بتغيراته ، ثم حفظه للقرآن الكريم ودراسة علومه ..

وإذا كانت هذه هى العوامل الأولية المباشرة التى شكلت تفكيره فعلاً ، فهناك بعض العوامل الثانوية التى كان لها أثرها أيضا مثل عمله الصحفى وميله الأدبى ورحلته العلمية إلى تونس وزيارته للبلاد العربية بالإضافة إلى استعداده الشخصى..[١]

أولاً : أسرته :

كانت هى العامل الأول فى تكوين شخصيته واتجاهه العلمى وتوجيهه ، لأن أفراد أسرته كانوا من حملة القرآن ، وكانوا ينتمون إلى الطريقة القادرية ، كما كان أبوه وجده من قضاة قسنطينة وعلمائها وهكذا نشأ ابن باديس على خلق العلماء وحب العلم والأخلاق ..

وإلى جانب اهتمام أسرته بتعليمه وتوجيهه وأثرها المباشر فى تكوينه كان هناك أثراً غير مباشر للأسرة من خلال الاتصال والتواصل المعرفى والوجدانى بين ابن باديس وأجداده واقتدائه بهم .

ويصف الدكتور محمد البهى عند تقديمه للتفسير الباديسى ذلك التأثر

---

(١) راجع : آثار ابن باديس : جـ ١ م ١ ص ٧٧ وفى مجلة البصائر العدد ١٦ إبريل ١٩٣٦.
تفسير ابن باديس : ص ٨ ، المقدمة.

والاقتداء وأثره المباشر على شخصيته وتكوينه فيقول :

ولم يكن ابن باديس امتداداً للتأثير الخارجي وحده (أى الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم) فقط فى مجال الدعوة والإصلاح بل كان امتداداً لجده المعز بن باديس الذى توفى عام ٩٨٤م، وكان له دوره فى مقاومة البدع والضلالات التى أدخلت على الفكر الإسلامى، إذ كان جده يناضل الإسماعيلية الباطنية وبدع الشيعه فى إفريقية ..

ثانياً : البيئة الثقافية :

وقد تمثلت هذه البيئة فى الحركة الفكرية الناهضة فى التأليف والنشر والاهتمام بالعلم والإصلاح والحرية ، فكانت بيئته تموج بتيارات ومذاهب متباينة أبرزها تعدد الحركات الإصلاحية والطرق الصوفية وإنقسام أصحاب الرأى إما إلى الوهابية والسلفية وإما إلى المادية الغربية ، فكان على ابن باديس أن يختار الطريق والمنهج الصحيح الملائم لظروف مجتمعه فجمع حوله العلماء وأسس جمعية باسمهم فى محاولة لمواجهة هذه المتناقضات الفكرية واتفاقهم فى الرأى حول ضرورة الرجوع إلى السلف الصالح وتغيير ما بالنفس من آثار الآنحطاط[١] .

ويؤكد عمار الطالبى على أن الواقع الثقافى الذى عايشه ابن باديس وظهور بعض الشخصيات العلمية المتأثرة بآراء محمد عبده التى نقلتها مجلة العروة الوثقى والمنار إلى المغرب العربى وخاصة الجزائر كان من أبرز العوامل التى أدت إلى تكوين شخصيته الفكرية ..

كما يصف الأثر الإيجابى لزيارة الإمام محمد عبده إلى الجزائر وزيارته للجامع الكبير بقسنطنية فى إحداث الاتصال والتواصل الفكرى ثم ظهور مجموعة

---

(١) راجع تفصيل ذلك بالمجلد الأول : ابن باديس : حياته وآثاره، جـ ١ م ١ ص ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٣، ٦٧.

من العلماء يحملون أفكار محمد عبده ومدرسة المنار ويقومون بتدريسها ونشرها منهم : عبدالحليم بن سماية ، وعبدالقادر المجاوى ، ومحمد بن مصطفى بن الخوجة وغيرهم .. فهؤلاء كانوا على صلة برشيد رضا ومدرسة المنار وكانوا يدرسون رسالة التوحيد للإمام محمد عبده إلى جانب دلائل الإعجاز للجرجانى والاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى بالمدرسة الثعالبية بالجزائر..

ومن هنا كان تأثر ابن باديس بهذه البيئة فظهرت منهجيته بوضوح فى أسلوبه ودعوته إلى الاهتمام بالعقل والمنهج فى رد الفروع إلى الأصول والأصول إلى مستنداتها ، واهتمامه بأصول الفقه والبلاغة حيث اعتبر أن كتاب الموطأ للإمام مالك هو خير مناهج الاستدلال ولذا قام بتدريسه بعد أن أتم حفظه ، كما حرص على تدريس كتب الأمالى وديوان الحماسة ، وديوان المتنبى ، ومقدمة ابن خلدون ، والعواصم من القواصم ، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة إلى جانب القرآن وعلومه(١).

وكانت الحركات الإصلاحية فى مصر وتونس والجزائر بيئة ثقافية مؤثرة فى تكوين شخصية ابن باديس ، حيث الاتصال المباشر بينه وبين رجال الإصلاح خاصة رشيد رضا وأتباع المنار فى مصر ، ومع عبدالعزيز الثعالبى فى تونس، فكانت هذه الحركات تعبر عن أفكار العصر وتسعى لتحليل الأوضاع الاجتماعية ووضع طرق مواجهتها، فكان ضرورياً تباحث واتفاق زعماء الإصلاح حول أسس الدعوة الإصلاحية وكيفية انتشارها وتطبيقها .. فكان التشابه والاتفاق بين منهج وأسلوب جمعية العلماء فى الجزائر وجمعية العروة الوثقى فى مصر واتفاقهم حول :

١- ضرورة أن يكون العلم وسيلة للبناء الفكري والحضارى وتنمية القوى الروحية للفرد .

---

(١) آثار ابن باديس جـ ١ م ١ ص ٩١.

٢- ضرورة مواجهة الواقع الاجتماعى والخلقى المتدهور الناتج عن انتشار الجهل والبدع والضلالات .

٣- ضرورة توحيد الكلمة فى الخير والسعى إلى الكسب وعمران البلاد مع الاقتصاد فى المعيشة .

٤- ضرورة نشر العلم والدين والجد فى تحليل كافة العلوم الدينية والتربوية .

٥ - ضرورة القضاء على عوامل الجمود والجهل وبعث الشعور بالحياة والثقة فى الرجال ومن بيدهم الحل والعقد .

ولهذا كان حرص ابن باديس على إبراز هدف جمعية العلماء وخطتها وكان يقول بأن التعليم العام لابد وأن يكون أول ما نهتم به من شئون إصلاحنا ولابد من انتشار العلم على مستوى العامة مع حرية الفكر واستقلاله، وأن خطة الجمعية علمية دينية هدفها نشر العلم والفضيلة ومحاربة الجهل والرذيلة وأن القرآن الكريم إمامنا والسنة سبيلنا والسلف الصالح قدوتنا.(١)

ويصف لنا عمار الطالبى هذه البيئة الثقافية المتنوعة التى عاشها ابن باديس فيقول : وإذا كانت الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية تمثل جانبا من العوامل الداخلية التى أثارت ابن باديس ورفاقه فإن هناك عوامل خارجية أيضا كان لها أثرها المباشر فى تفكيره وهى ابتداء النهضة فى المشرق وعودة الاتصال الفكرى والثقافى بينه وبين المغرب عن طريق الصحف والكتب والمجلات والحج، هذا بالإضافة إلى الرحلات العلمية إلى جامع القرويين بالمغرب والزيتونة بتونس والأزهر بمصر، ثم كان من رواد هذه النهضة الفكرية السيد قدور بن مراد التركى الذى أسس المكتبة الثعالبية، والشيخ صالح بن مهنا بمؤلفاته الوطنية والشيخ عبدالقادر المجاوى

---

(١) راجع : آثار ابن باديس جـ ٣ ص ٦١، ٤٦٧، جـ ٤ ص ٢٠٦، ٢٠٧، د. محمود قاسم: ابن باديس الزعيم الروحى ص ٣٧، وفى الشهاب عدد سبتمبر ١٩٣٧ .

بمؤلفاته التربوية والمدرسية، فهذه المؤلفات كان لها أثرها فى رجال الإصلاح والنهضة وفى مقدمتهم أستاذ ابن باديس حمدان لونيس، ومن غريب المصادفات أنه فى السنة نفسها التى توفى فيها الشيخ عبدالقادر المجاوى ابتدأ عبدالحميد بن باديس حركته التعليمية بمدينة قسنطينة فاتصلت حلقات الإصلاح متطورة إلى مرحلة القوة والنضج(١).

ثالثاً : زملائه وأساتذته :

وهم الذين شاركوه أفكاره ومراحل كفاحه وغرسوا فيه خلق العلماء وتواضع الحكماء وصفات القادة والمصلحين وبفضلهم حفظ القرآن ودرس العلوم والكتب على اختلافها وتنوعها وشارك فى الإصلاح والنهضة، وكان فى مقدمة هؤلاء الشيخ العربى التبسى، والشيخ البشير الإبراهيمى، والشيخ العقبى ومبارك الميلى أما أساتذته الذين كونوا بيئته التعليمية وتعهدوه بالرعاية والتوجيه فيعترف ابن باديس بفضلهم ويذكر دورهم ويقول فى ذلك : وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ فى تربيتى وحياتى العملية حمدان لونيس القسنطينى نزيل المدينة المنورة ودفينها وثانيهما الشيخ محمد النخلى المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله..(٢)

ومعروف أن حمدان لونيس هو الذى درسّ لابن باديس القرآن وعلومه وأوصاه بالبعد عن الوظائف الحكومية ليتفرغ للإصلاح والنهضة .

أما الشيخ النخلى فكان له فضل توجيه ابن باديس إلى أهمية التفسير واستخدام العقل فى التأويل وكيفية التعامل مع أصحاب المذاهب والفرق وهو الذى أوصاه عندما رآه متبرماً من الأساليب التقليدية فى التفسير وإدخال البعض

---

(١) آثار ابن باديس : عمار الطالبى جـ ١ م ١ ص ١٨، ١٩، ٢٤.

(٢) آثار ابن باديس جـ ١ م١ ص ٧٩.

للتأويلات الجدلية والاصطلاحات المذهبية فى كلام الله واختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت (على حد تعبير ابن باديس) : وكانت على ذهنى بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى فى دين الله وكتاب الله فذاكرت يوما الشيخ النخلى فيما أجده فى نفسى من التبرم والقلق فقال لى : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة ليسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح .. فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة فى ذهنى أفاقا واسعة لا عهد لى بها (١) .

ويصف ابن باديس مدى تأثره بأستاذه محمد الطاهر بن عاشور فيقول : ولن أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة عن الأستاذ ابن عاشور وكانت أول ما قرأت عليه فقد حببتنى فى الأدب والتفقه فى كلام العرب وبثت فىّ روحاً جديداً فى فهم المنظوم والمنثور وأحيت منى الشعور بعزة العروبة كما أعتز بالإسلام .

وكان معروفاً فى ذلك الوقت أن كلاً من الطاهر بن عاشور ومحمد النخلى هما من دعاة الإصلاح ومن أكثر المتأثرين بدعوة جمال الدين ومحمد عبده الإصلاحية .

ويرى البعض أن لقاء ابن باديس ومالك بن نبى والتقاء الآراء بينهما فى معظم القضايا الاجتماعية ووسائل تحقيق النهضة الجزائرية كان من المؤثرات الإيجابية فى الحركة الإصلاحية . (٢)

حيث كان الواقع الاجتماعى بمشكلاته والرغبة فى الإصلاح والتغيير وراء اتصال مالك بن نبى بابن باديس ليبثه ما يجده فى نفسه من بعض الأفكار المتصلة بالمجتمع خاصة فى قرية إقلو .. ويؤكد مالك بن نبى أن معجزة الحياة فى الجزائر

---

(١) راجع مجلة البصائر العدد ١٦ إبريل ١٩٣٦، وفى آثار ابن باديس جـ ١ م١ ص٧٨/٧٧.

(٢) راجع ما كتبه مالك بن نبى فى كتابه : شروط النهضة ومشكلات الحضارة وكتابه: مذكرات شاهد القرن .. عن إلتقائه بابن باديس ودوافع ذلك اللقاء..

بدأت بصوت الشيخ عبدالحميد بن باديس وندائه فأيقظ المعنى الاجتماعى وحول مناجاة الفرد إلى حديث الشعب. (١)

وكان إتفاقهما حول الرأى بأن الإصلاح والنهضة إنما يدركان فى إطار فكرة شاملة وجوهرية هى فكرة الحضارة .. ويؤكد مالك بن نبى أن ابن باديس قاد الثورة الفكرية مثلما قادها جمال الدين الأفغانى يهدم ويبنى على أساس منهج مرسوم حيث بدد التقاليد الثقيلة والطرق الجامدة المخدرة للشعب . (٢)

رابعاً : عمله الصحفي وميله الأدبي :

بوصفه الأسلوب العلمى لمواجهة العادات والخرافات، فكانت الصحف التى أنشأها ابن باديس بمثابة مرحلة جديدة فى العمل التربوى من أجل الإصلاح والتغيير ..

وكانت جريدة المنتقد مثالاً للفاعلية والتأثير إذ خصصها ابن باديس لنقد أصحاب الطرق الصوفية الخارجة عن أصول الدين، كما رفعت المنتقد شعاراً عاماً هو إعتقد ولا تنتقد وقد بدأها ابن باديس بمقال إفتتاحى لبيان المنهج والغاية بعنوان :خطتنا مبادئنا وغايتنا وشعارنا وترجع أهمية هذا المقال الإفتتاحى إلى أنه يوضح الهدف والوسيلة وبداية الطريق للإصلاح وتكوين الفكر ..

---

(١) آثار ابن باديس جـ ١ م١ ص ٦٣/٦٧، ٦٩.

(٢) مالك بن نبى : شروط النهظة ومشكلات الحضارة جـ ١ ١٩٤٨. تقديم د. عبدالعزيز خالدين ترجمة وطبع بمصر عام ١٩٥٧ تحت عنوان : فلسفة الحضارة وفن التوجيه.

وطبع ببيروت تحت عنوان : حديث فى البناء الجديد – مشكلات الحضارة مجموعة المحاضرات التى ألقاها بلبنان وسوريا جمعها وترجم لمؤلفها محمد كامل سقارى – المكتبة العصرية ببيروت.

مذكرات شاهد القرن: مالك بن نبى : المطبعة الوطنية بالجزائر عام ١٩٦٥.

الظاهرة القرآنية : سلسلة مشكلات الحضارة طبعة الكويت ترجمة د. عبدالصبور شاهين جـ ٣ ، ١٩٨٣.

وافتتح ابن باديس المقال : باسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظم المسئولية التي نتحملها فيه مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون والمبدأ الذي نحن عليه عاملون ..

ثم تحدث عن المبدأ السياسي والمبدأ التهذيبي والمبدأ الإنتقادي وبين غاية النقد وطريقته بقوله : إننا لا نتعرض للأشخاص فيما يختص بأحوالهم الشخصية وإنما يتوجه النقد إلى سلوكهم الذي يمس شئون الأمة .. فتنقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاديم وكل من يتولى شأناً عاماً من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسيين والوطنيين، ونناهض المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين وننصر الضعيف والمظلوم بنشر شكواه والتنديد بظالمه كائناً من كان لأننا ننظر من الناس إلى أعمالهم لا إلى أقدارهم فإذا قمنا بالواجب فلأشخاصهم منا كل إحترام، ولهذا كان الشعار الرسمي لجريدة المنتقد هو : الحق والوطن، الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء[1].

ويرى عمار الطالبي أن التشابه كان واضحاً بين المنتقد والعروة الوثقى حتى أن المنتقد قد توقفت عن الصدور بعد ١٨ عدداً مثل العروة الوثقى تماماً .

وأن كليهما ذا إتجاه ثورى نقدى وتربوى ويهتم بالقضايا الإجتماعية والسياسية وكلاهما يصدران عن روح واحدة وإرادة قوية وحماسةلتؤدى رسالة اليقظة والوعى ..

وبعد جريدة المنتقد أصدر ابن باديس جريدة الشهاب لضمان إستمرار سياسة الإصلاح والتربية، فكان الشهاب مجلة علمية تربوية تعالج شئون الشباب والنهضة والتعليم والرقى بشئون المسلم الجزائرى وكان شعار الشهاب وهدفه تحقيق الإصلاح

---

(١) قد توقفت المنتقد عن الصدور فى نوفمبر ١٩٢٥ بعد صدور ١٨ عدداً منه .
راجع آثار ابن باديس جـ ١ م١ ص ٨٢/ ٨٦. وفى المنتقد ع ١ ص ١ .

الدينى والدنيوى وفق مبدأ ثابت هو لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وهو قول ينسب إلى الإمام مالك أورده فى الموطأ .

وحرص ابن باديس على إبراز شعار الجريدة وهدفها الخلقى والإجتماعى فكان شعار الغلاف الحق والعدل والمؤاخاة فى إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات .

وكانت الشعارات الأربعة التى كتبت على الجوانب الأربعة للغلاف هى :

(١) العدالة والأخوة والسلام .

(٢) قل هذه سبيلى أدعو إلى الله أنا ومن أتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين»[١]

(٣) أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن»[٢]

وكانت مقدمة المقال دعوة لضرورة الإعتماد على النفس والتوكل على الله فبدأ المقال بقوله : تستطيع الظروف تكييفنا ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا . وكانت آيات القرآن وبعض التفسيرات والأحاديث تتصدر الصفحات الأولى لها.[٣]

وكان أخر الأعداد فى صدورها فى سبتمبر ١٩٣٩ شعبان ١٣٥٨ .

وبعد جريدة المنتقد والشهاب أصدر ابن باديس العديد من الصحف كالسنة والشريعة والصراط والمجاهد والبصائر وغيرها، ولهذا كانت الصحافة فى عمومها سواء تلك التى أنشأها أو غيرها من الصحف الجزائرية والعربية كان لها تأثيرها فى تكوين شخصية ابن باديس الفكرية والأدبية وكان من أبرز هذه الصحف المؤثرة فى

---

(١) يوسف : ١٠٨

(٢) النحل : ١٢٥

(٣) اثار ابن باديس جـ ١ م١ ص ٨٧/٨٣.

حركة النهضة جريدتى الحق والفاروق التى أسسها عمر بن قدور الذى يعتبر من المدرسة الإصلاحية المتأثرةبآراء محمد عبده ومدرسة المنار ..

ولقد استطاع ابن باديس من خلال عمله الصحفى تصوير وتحليل الواقع العربى والجزائرى المتغيربمشاكله السياسية والإجتماعية والتى عاشها وتفاعل معها وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وتمكنت صحافة ابن باديس من تحديد عوامل النهضة ورصد حركات الاستقلال وتوجيهها، وتحديد أسباب الركود والجمود وعلل التخلف والجهل ووسائل الإصلاح والتطوير، وكيفية تنفيذ برامج الإصلاح والتربية وكيفية توجيه الطاقات للمحافظة على الشخصية العربية والروح الإسلامية ، ولهذا قيل بأن معايشة ابن باديس لواقعه وتعبيره الصادق عن متطلباته وحاجاته هو التعبير الصادق عما يختلج فى النفوس من قلق وأمل .. وكانت هذه المعايشة هى دافعه لوضع اللبنات الأولى لحياة ثقافية نشطة كما كانت من أهم المؤثرات فى تكوين شخصية ابن باديس التربوية والأدبية .

خـامـسـاً : سـيـادة الاتجـاه السلفى:

وانتشار آراء ابن تميمة وأبو بكر ابن العربى والغزالى وظهور مجموعة من السلف المعاصرين لابن باديس أمثال محمد عبده وبعض زعماء الإصلاح، كان لذلك أثره الكبير على شخصية ابن باديس وإتجاهه العقلى، حيث ظهر تأثره واضحا بأصحاب الاتجاه السلفى وخاصة الغزالى، حتى أنه أطلق على كتاب الإحياء اسم كتاب الفقه النفسى . كما تأثر بآراء أبوبكر بن العربى وخاصة كتابه العواصم من القواصم والذى قام ابن باديس بشرحه وتفسيره وطبعه على نفقته الخاصة لتدريسه لتلاميذه، وظهر تأثرابن باديس بالاتجاه السلفى فيما كتب عن العقائد والتفسير كما ظهر ذلك فى كتابه عن العقائد الإسلامية وإعتماده على الأدلة النقلية والعقلية فظهر مدى تأثره بابن تيمية ونزعته السلفية حتى أن ابن باديس وصفه بأنه المجدد الوحيد والمصلح فى شيخوخة الفكر الإسلامى ..

كما ظهر تأثر ابن باديس بالأتجاه السلفى المعاصر الذى دعا إلى ضرورة الإعتماد على العقل فى فهم القرآن والحديث، ودعا إلى ما دعوا إليه من ضرورة إرجاع الأمة إلى الحقيقة القرآنية ونبع الهدايةالأخلاقية والنهوض الحضارى .

ولهذا كان سيادة هذا الإتجاه من أهم العوامل التى شكلت تفكيره وأثرت فى حياته وشخصيته مما إنعكس بوضوح أثناء تدريسه وتفسيره وأثناء مواجهته للطرق الصوفية حتى قيل بأن ابن باديس بعقلانيته وسلفيته كان نموذجاً صادقاً للصوفى المؤمن والإنسان الزاهد على حقيقته لا كمتصوفة عصره وزهادهم . (١)

وقد ظهرت سلفيته واضحة منذ بداية نشأته العلمية وإعلانه بأن هدفه الأول من كل حياته هو إرجاع الأمة الجزائرية إلى الحقيقة القرآنية .

– بوصفها منبع الهداية الأخلاقية والنهوض الحضارى، وأن همه أن يكون رجالاً قرآنيين يوجهون التاريخ ويغيرون الأمة ..وكان القرآن وعلومه هو القاعدة الأساسية التى ترتكز عليها جميع التعاليم التربوية والدينية والخلقية والسياسية أيضا.

كما ظهرت سلفيته أيضا حين ابتدأ بتدريس كتاب الشفاء للقاضى عياض، وإحياء علوم الدين للغزالى والعواصم من القواصم لأبى بكر العربى، ثم إتصاله المباشر برجال الفكر الإسلامى فى العالم العربى وكانوا فى غالبيتهم ذا إتجاه سلفى..

كما ظهرت سلفيته أيضا فى تمسكه الشديد بالنص وتأويله الذى لا يخرجه عن الأصل، ولذا رفض ابن باديس مطلق التأويل وأن تأول النصوص حسب المذاهب والأهواء، ورأى أن كثرة التأويلات وتناقضها كان وراء ظهور الخلافات وتعدد الفرق وإتساع الصراعات وافتراق المذاهب إلى شيعة وأهل سنة وفلاسفة

---

(١) راجع : عمر بن قنية : ابن باديس رجل الإصلاح والتربية وفى آثار ابن باديس جـ ١ م١ ص ٧٦.

ومتكلمين ومعتزلة، وحاول إثبات أن التأويل بطريقتهم لم يصل بنا إلى حقيقة ثابتة كحقيقة القرآن، لأن التأويل عادة ما يختلف من عصر إلى عصر ومن فرد إلى فرد ومن مذهب إلى أخر ومن جيل إلى جيل وذلك لأن الفرد يحكمه مزاجه الخاص والجيل تحكمه تقاليده وارتقاؤه العقلى أما الأصل فى الكتاب والسنة لا يتأثر بفرد ولا جيل لأنهما حقيقة لا تقبل الجدال أو التأويل، وكانت سلفية ابن باديس واضحة فى إستلهامه للمنهج القرآنى فى الرد والحجاج وتفسير القرآن بالقرآن والإعتماد على الوصف والقصص القرآنى وما تنطوى عليه الآيات من الدعوة إلى النظر فى تجارب الأمم وتطورات الأحداث وما تخضع له من سنن وقوانين لا تبديل لها ولا تحويل ..وكان منهجه السلفى معتمداً على بيان القرآن للقرآن وبيان السنة له وعلى أصول البيان العربى وقوانين النفس البشرية وسنن الإجتماع الإنسانى وتطور تاريخ الأمم(١) .

ويشير مالك بن نبى إلى أثر سلفية ابن باديس فى ثورته الفكرية ونجاحه فى تبديد ما كان مخيما على الجزائر من تقاليد ثقيلة متمثلة فى إدعاءات وعادات وأفكار الطرق الجامدة المخدرة للشعب، كما يشير إلى أثر الحركات الإصلاحية وتنوع المذاهب الفكرية فى تكوين شخصية ابن باديس وإرتباطه بدعوة الإمام محمد عبده ورشيد رضا .

أما عمار الطالبى فيرى أن هذا الإرتباط والأتجاه السلفى لابن باديس لم يمنعه من توجيه النقد لبعض هذه الحركات الإصلاحية أو الدعاوى السلفية، خاصة وأن أصحاب هذه المذاهب وإن أخذوا بفكرة الإصلاح الدينى الذى يعتبر نقطة إنطلاق فى كل تغيير إجتماعى إلا أنها ابتدأت بمرحلة علم الكلام التى هى المرحلة الفكرية أو العقلية وتخطت المرحلة الأخلاقية الروحية التى تؤدى إلى أول

---

(١) آثار ابن باديس جـ ١ ص٦٧، ٩١، ٩٢ وفى الأصالة ومحمد المبلى : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٩، ١٠.

تغيير حقيقى للقيم الإجتماعية فقد رأى ابن باديس ورفاقه أن تلك مزلقة لا تؤدى إلى الوعى بقدر ما تؤدى إلى تعلم جدليات الكلام ، وأنه خطأ منهجى أدى إلى عدم تسجيل هذا الإصلاح فى نسق الأحداث التاريخية التى تقرر مصير الجماعات الإنسانية.(١)

سادساً : منهجية القرآن وشموله :

رغم تعدد العوامل والمؤثرات التى صاغت منهجية ابن باديس وشكلت شخصيته فإنه يؤكد على أن القرآن الكريم كان العامل الأول والعام فى تكوين شخصيته بل وحياته الفكرية كلها لأنه أول العوامل وأسبقها وأهمها أثراً .

ويصف عمار الطالبى دور القرآن فى توجيه ابن باديس وتكوينه فيقول : والعامل الأخير الذى يفوق جميع العوامل الأخرى، والذى كرس له ربع قرن من حياته هو القرآن الكريم الذى صاغ نفسه وهز كيانه واستولى على قلبه فاستوحاه فى منهجه طوال حياته وترسم خطاه فى دعوته وناجاه ليله ونهاره يستلهمه ويسترشده ويتأمله فيعى منه ويستمد علاج أمراض القلوب وأدواء النفوس ويذيب نفسه، ويبيد جسمه الهزيل فى سبيل إرجاع الأمة الجزائرية إلى الحقيقة القرآنية ومنبع الهداية الأخلاقية والنهوض الحضارى، وكان همه أن يكوّن رجالاً قرآنيين يوجهون التاريخ ويغيرون الأمة، ولذلك جعل القرآن قاعدة أساسية ترتكز عليها تربيته وتعليمه للجيل، وتلك الحقيقة التى يؤكد عليها ابن باديس حين قال: إننا والحمد لله تربى تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن فى كل يوم(٢) .

---

(١) مالك بن نبى : وجهة العالم الإسلامى ط القاهرة ١٩٥٩، ص ١٧٤ وفى آثار ابن باديس جـ ١ م١ ص٦٨، ٦٩.

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره جـ ١ م١ ص ٧٩/٨٠:

obeikandl.com

الفصل الثالث

ابن باديس المصلح الفيلسوف

ابن باديس المصلح الفيلسوف حقيقة واقعة أثبتها واتفق عليها كثير من رواد الفكر والفلسفة والأدب فى مصر والعالم العربى كما أثبتها فكر ابن باديس نفسه ومنهجه الشامل فى الإصلاح الدينى والأخلاقى والإجتماعى، حيث ظهر بوضوح مدى التشابه بين قواعد المنهج الإصلاحى الشامل الذى قدمه ابن باديس وبين النسق الفلسفى الذى يقدمه الفلاسفة .

ولأن الإصلاح بمعناه العام هو التغيير الإيجابى فى سلوك أفراد المجتمع من أجل صالح الإنسان، وسعى دائم من أجل تحقيق ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع بالفعل، فمن هذه الناحية أمكننا القول بأن ابن باديس مصلح وفيلسوف كما كان غيره من الفلاسفة مصلحين حيث حاولوا بفلسفتهم إصلاح الفكر والسلوك والعقيدة وبناء الإنسان ..

ولتأكيد ذلك راجع أراء كل من عمار الطالبى، البشير الإبراهيمى وتركى رابح ومالك بن نبى، وعمر بن قنية، ومحمود قاسم ويحى هويدى ومصطفى حلمى، وأنور الجندى وغيرهم .

فهؤلاء يؤكدون على أن :

١- أن فكرة الإصلاح وصياغتها المنهجية هى فكرة فلسفية من الدرجة الأولى، كما أن غايتها أيضا غاية فلسفية وهى السعى لتحقيق رغبات الإنسان وتطلعاته.

٢- إنه كان يمثل بالنسبة لأمته المخلص والنور والمصلح الذى يهديهم ويقودهم فى الطريق إلى مستقبل أفضل، وأن أثر أفكاره الإصلاحية قد تخطى حدود الشمال الإفريقى وعصره عبر مدارس الإصلاح التى إنتشرت بعد وفاته تتبع

منهجه فى الإصلاح والدعوة وسميت إحداها بالمدرسة الباديسية فى الإصلاح.

كما يؤكدون على أثر هذه المدرسة الواضح فى النهضة والحضارة المعاصرة.

٣ – فى كل مناسبة علمية تعقد المناقشات لدراسة آراء ابن باديس فى التربية والسياسة والأخلاق وبناء المجتمع وإيقاظ الوعى، تؤكد على أنه المصلح الفيلسوف، فمن أجل الإصلاح قام بتفسير القرآن وتفسير الأحاديث، وقام بتحليل أحداث التاريخ وأطوار الأمم ووضع تصور للأمة العربية ومستقبلها، ومن أجل الإصلاح كان إشتغاله بالصحافة واهتمامه بالشعر، ومن أجل الإصلاح كانت جميع آرائه ومواقفه بل حياته كلها وروحه.

أولاً : ابن باديس فيلسوف المنهج :

منهج ابن باديس عبارة عن النسق الفلسفى الذى قدمه وآمن به وطبقه بعد بنائه على أسس من الموضوعية والعلم، وأقامه على عدة قواعد ومبادىء وخطوات محددة فى إطار عام يتمثل فى : إصلاح اللغة والتعليم، والجمع بين الدين والدنيا، والتخلص من التبعية للإستعمار، القضاء على عوامل التخلف، إصلاح الإنسان وبنائه، الدعوة بالتى هى أحسن، التفاؤل، الجمع بين القول والعمل.

ولتحقيق ذلك كان عليه وضع عدة مبادىء أساسية ومحاور للإصلاح الشامل هى المبدأ الدينى، المبدأ الأخلاقى، والمبدأالسياسى، والمبدأ الإجتماعى*.

والواقع فإن هذه المبادىء هى التى جعلت من المنهج الباديسى منهجاً شاملاً يدور حول إطار أخلاقى عام مؤلف من مبادىء عامة ثابته هى الحرية والعدالة والأخوة والسلام بوصفها قواعد ومبادىء ثابته تتميز بالشمول والعموم لتوافق عموم المنهج واستمراره..

---

* انظر الجزء الثانى من هذا البحث فى فلسفة ابن باديس العملية ومناهجه الإصلاحية.

ومن هذه الناحية تميز المنهج الباديسى عن غيره من المناهج وخاصة تلك التى حاول تقديمها رجال الغرب من أصحاب الإتجاهات الإصلاحية أو البنائية، فمنهم من اعتبر الإصلاح السياسى هو أساس كل إصلاح وتغيير، ومنهم من اعتبر الإصلاح الأخلاقى هو الأساس فى بناء الإنسان وآخرون رأوا فى الإصلاح الإجتماعى غاية كل إصلاح ، ورأى آخرون أن الإصلاح الإقتصادى هو الاساس فى بناء المجتمع وصلاحه ..

ورأى آخرون أن تدهور المجتمع يرجع فى الاساس إلى تدهور الجانب الروحى والخلقى فى الإنسان ويمثلهم إيركهارت وتولستوى وغيرهم .

فهؤلاء نظروا إلى مشكلة المنهج والإصلاح نظرات جزئية وحاولوا الإهتمام بجانب واحد من الجوانب ولم يهتموا بشمول المنهج وعموم المشكلة .

أما إبن باديس فقد إستلهم شمول منهجه من شمولية القرآن واهتمامه بالإنسان ككل واهتم بمبادىء الإصلاح العامة التى يتوجه بها الخطاب القرآنى للناس جميعاً، فكان منهج ابن باديس الشامل لجميع جوانب الإصلاح الدينى والأخلاقى والاجتماعى والسياسى .

(١) العقل والدين :

أسس ابن باديس منهجه الإصلاحى على أساس الربط بين العقل والدين، أو بين النظر والعمل، مؤكداً على أن إصلاح الإنسان يتوقف على إصلاح العناصر المكونة له وفى مقدمتها العقل والقلب وأن العقل السليم وإستخدامه فى الفهم والتحليل وإدراك الحقائق هو سبيل تنقية الدين من العناصر الدخيلة عليه .

وفى هذا الإطار كانت دعوة ابن باديس لاستخدام العقل وإصلاح النفوس وبث الثقة والأمل فى النجاح والإصلاح والتقدم، وأن تحقيق ذلك يتوقف على سلامة اللغة والدين والخلق والعلم قبل كل شىء .

لم يقف ابن باديس عند حدود الفكر النظري المثالي بل تجاوزه إلى واقعية العمل لإيمانه الراسخ بضرورة العمل ومساوقته بتفكير فكانت مواقفه العملية من أجل إحداث التغيير الاجتماعي بدافع التعلم من شعبه ورث الوعي ومحاولته الجادة لادراك أسباب الانحطاط وتحديد الوسائل الموصلة للقضاء على التخلف والجهل، ومن ثم كان الجمع بين النظرية والتطبيق من أهم ملامح منهجه على اعتبار أن النظرية سابقة على الفعل وأن العقل مساوق للدين غير منفصل عنه .

وبالفعل بدأ ابن باديس مرحلته النظرية بتساؤلات فلسفية تعبر عن أهدافه وحقيقة موقفه والمنهج الذي يريده فكانت تساؤلاته ..

– من نحن ؟ ما هي حقيقتنا في هذا العالم ؟ ومن تكون الجزائر؟

– ما هي حقيقة الوطن وما علاقته بالوطنية ؟ ومن هم العرب ؟

– ما هو طريق المستقبل ؟ لمن أعيش ؟ وما معنى الحياة ؟

ولقد أطلق البعض على هذه المرحلة إسم الكشف عن الحقيقة لاظهارها أو مرحلة المكاشفة أي مكاشفة الذات لنفسها ومكاشفة الواقع للذات .

أما التطبيق العملي لأفكاره فقد بدأ ببلورة هذه الآراء وإعدادها للتطبيق الفعلي، فبدأ بمرحلة الإعداد وهي مرحلة التعليم للشباب، ثم مرحلة كشف أسباب التدهور الإجتماعي والأخلاقي والذي أرجعه ابن باديس إلى الجهل وفصل العقيدة عن العمل وتدهور العقيدة في قلوب العامة وتطرق الشرك الخفي

وهكذا أكد منهج الإصلاح الباديسي على الطابع المميز للفلسفة الإسلامية بوصفها فلسفة توفيقية تقوم على الجمع بين العقل والنقل أو بين الدين والعلم وتعمل على توفير مطالب الجسم والروح والفكر والواقع في إطار شمولي محدد المعالم.[1]

---

(١) محمد الميلي : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٤٠ .

(٢) المبـــــــدأ الأخـــــــــلاقي :

أقامه ابن باديس على أساس أنه لا فاصل بين المعرفة والسلوك، وأن حسن الطاعات وقبح المعاصي مركوز في العقول، وأن الله أعطى للعقل الإنساني قدرة يميز بها بين القبيح والحسن وبين الرزيلة والفضيلة حتى يسهل عليه إتباع الشرائع التي أوصى بها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لدعوة الناس إلى فعل المحاسن وترك القبائح، وحتى يترتب الثواب والعقاب على إختيار الإنسان لما يعلم بعقله أنه حسن أو قبيح .

فالعقل هنا لا يحسن ولا يقبح بل يميز ويحكم ويوجه، وعلى ذلك فالفضيلة إنما كانت فضيلة لحسنها وكمالها، والرذيلة إنما كانت رذيلة لقبحها ونقصها والإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهية النقص .(١)

ولتطبيق هذا المبدأ كان على ابن باديس مسئولية تنظير الفضائل الأخلاقية ووضعها في صورة وصايا وتعاليم واجبة التنفيذ لأن عليهايتوقف صلاح الإنسان وسعادته، وهي واجبة لأنها مستمدة من توجيهات وأحكام إلهية كالإيثار والصبر والثبات والجهاد والشجاعة والصدق والتسامح والرحمة والحب وغيرها من صور الفضائل التي تسهم في تحقيق السعادة والفلاح والصفاء لمن يتحلى بها ويقوم بتنفيذها .

والمتأمل في آراء ابن باديس في النفس والفضائل الخلقية يلحظ مدى إهتمامه بالإنسان وإصلاحه، وفي هذا الإطار .

- يقسم ابن باديس النفس إلى نفس خيرة وأخرى شريرة وأن صلاح الإنسان وفساده إنما يتوقف على صلاح نفسه أو فسادها .

---

(١) راجع في ذلك تفسير ابن باديس ص ١١٩، ابن باديس الزعيم الروحي، د. قاسم ص ١٠٨، ١٠٩.

- أن صلاح النفوس لا يكون بالشدة بل بالرفق والصراحة والصدق والتوبة والمحبة فذلك هو الطريق لإصلاح النفوس والتأثير فيها .
- أن الكمال الإنسانى مرتبط بالكمال الأخلاقى وكلاهما مرتبط ومستمد من الكمال الإلهى وأن تدرج الإنسان فى سلم هذا الكمال يوصله إلى السعادة الحقيقية
- أن التغيير والإصلاح لا يتحقق إلا فى إطار الأركان الأربعة وهى الحرية والعدالة والأخوة والسلام على أساس من تطبيق مبدأ الحق والعدل والمؤاخاة فى إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات* .

(٣) المبدأ الاجتماعي :

هو أساس كل منهج إصلاحى، وعند ابن باديس لا نستطيع أن نميز بين المبدأ الأخلاقى والمبدأ الإجتماعى وذلك لأن التغير الفردى هو سبيل تغير المجتمع وصلاحه وأن الفضائل الأخلاقية فى إنتشارها والتمسك بها هى أهم عناصر التماسك والتكامل الإجتماعى كالتعاون والصبر والجهاد والحكمة والشجاعة والتفاهم والرحمة والصدق وغيرها فجميعها تظهر وتتحقق عند تبادل المصالح والمنافع الإجتماعية المشتركة .

ولهذا كان إهتمام ابن باديس بتدعيم عوامل الإرتباط والتفاهم الإجتماعى من خلال رابطة اللغة والدين القومية، ثم محاولته القضاء على الآفات الإجتماعية والنقائص الخلقية التى تعيق التغير والتطور بعد تشخيصها ومعرفة طرق علاجها والقضاء عليها ..

ومن طريف تشخيصه لهذه الآفات قوله : الناس كالنبت معرضون فى حياتهم إلى عدة آفات يكادون لا يسلمون منها ، فمنها ما يصيب الأبدان ومنها ما

---

* راجع : الجزء الثانى : الفصل الثانى حول منهج الإصلاح الأخلاقى.

يصيب الأموال وبعضها ما يعم ذلك كله، ولا يسلم المجتمع البشرى إلا بمحاربته هذه الآفات كلها . فالآفة التى تصيب المجتمع كالآفة التى تصيب النبات .

ثم يعدد ابن باديس هذه الآفات وأخطارها وفى مقدمتها المخططات الإستعمارية، وعدم الإلتزام بمبادىء الإسلام وعدم تطبيقها والجهل بالحقائق، والإنفصال عن الحقيقة القرآنية، والخوف والإستسلام للظلم، والمفاسد الأخلاقية كشرب الخمر والميسر والبطالة وغيرها مما يفسد على الناس عقولهم ويضيع أموالهم وتتلف أبدانهم، ثم الطرقية الخارجة عن الدين بما تقوم به من أعمال يحرمها الشرع وينكرها العقل وتحجرها القوانين .[1]

ولتحقيق المبدأ الإجتماعي :

١- اشترط فى المصلح التفرغ لمهمته والبعد عن الوظائف الحكومية .

٢- توافر أدوات التنفيذ كالعلماء ورجال الدين والصحافة بوصفها الوسائل الفعالة لإحداث التأثير والتغير المطلوب .

٣- لابد من الشعور الوطنى المتمثل فى الولاء والإتحاد والتضامن من أجل ذلك دعا ابن باديس إلى عموم التعاطف والتراحم، وما يوحد بين الأجناس من وحدة الأصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة .

٤- الدعوة لتحقيق التضامن الإنسانى العام وفق مبدأ الإحسان لأن الإحسان إلى واحد هو إحسان للجميع والإساءة إلى واحد هو إساءة للجميع لأننا نحب الإنسانية ونحب من يحبها ويحترمها ونبغض من يبغضها ويظلمها .

٥- السعى لتحقيق العدل العام مع العدو والصديق .

٦- السعى لتحقيق وحدة الأديان والأوطان، لأن الإسلام بوصفه دين الفطرة هو دين الإنسانية والوحدة والاعتصام وهو السبيل لتحقيق سعادة الإنسانية

(١) مجلة الأصالة العدد ٤ ص ٥٦ .

وخدمتها وخيرها، ويؤكد ذلك ابن باديس بقوله: إن الإسلام ليس وحده دينا للبشرية ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان، وأن للأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية ولكل دين من أديانها حق من الإحترام.

٧ – السعى لتوفير وسائل المساعدة الإنسانية من أجل تحقيق النفع للبشرية و أن المبدأ الإجتماعى مبدأ إنسانى عام، ويقول ابن باديس فى ذلك : إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها والحدب عليها فى جميع أوطانها واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمى إليه وهذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليست من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة فوجب التفكير فى الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع .(١)

(٤) المبدأ السياسي :

يمثل الجانب التطبيقى فى المنهج الإصلاحى، وكان ابن باديس بنفسه هو العنصر الفعال والأكثر إيجابية فى نجاح المنهج الإصلاحى الشامل ، ويؤكد ذلك الأستاذ محمد الميلى فى كتابه : ابن باديس وعروبة الجزائر حين يقول : إن من العوامل التى تدفع إلى الإعتقاد بأن لابن باديس فلسفة متكاملة (بالمعنى الحديث) هو إرتباط تفكيره السياسى مع تفكيره الإنسانى وإرتباط هذين مع تفكيره الإصلاحى الدينى، وإرتباط الجميع مع الخطة التى يراها صالحة للخروج من التخلف وبالتالى لتحقيق مواجهة ناجحة مع الاستعمار .(٢)

ولبيان أهمية المبدأ السياسى فى المنهج الإصلاحى أشار ابن باديس إلى أهمية نظام الحكم ومكوناته وشروط نجاحه ووضع الأصول العامة للحكم والتى يمكن استنباطها من أصول الحكم فى الإسلام،وفى هذا الإطار أوضح ابن باديس:

---

(١) آثار ابن باديس : عمار الطالبى جـ ٣ ص ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٧٨

(٢) ابن باديس وعروبة الجزائر : محمد الميلى ص ٨٣/٨٥.

١- أن هناك صعوبة بالغة تحول دون تطبيق نظام الخلافة الإسلامية كنظام فى الحكم الآن، وهى تكمن فى إستحالة توافر الشروط اللازمة له وعدم ملاءمة المناخ الدولى والعربى لتقبله ومن هذه الشروط :

- إنه نظام إلهى ونبوى وإنه نظام فى الحكم الشامل الثابت المستمر لأنه مستمد من أحكام القرآن الثابتة - وأنه هدفه الأساسى حفظ مصالح العباد فى الدنيا وتحقيق سعادتهم فيها وفى الآخرة .

ولابد من تطبيقه على جميع البشر لعمومية أحكامه وشمولها وأنه صالح لكل زمان وأن هدفه العام هو خير البشرية العام .

٢- إن نظام الخلافة النبوى الذى طبق أيام النبى ﷺ وفى عصر الخلفاء الراشدين يختلف عن أى نظام بشرى أخر رغم التشابه الظاهرى فى بعض نواحى الشورى والديمقراطية .

٣- إن هذا النظام يقوم على أركان أربعة هى الشورى ثم الحرية وسيادة القانون، والجمع بين الدين والعلم، والمسئولية المشتركة .

٤- إن هناك شروطاً لازمة يجب توافرها فى الحاكم المسلم .(١)

ولم يقف ابن باديس عند حد وضع التصورات والشروط لنظم الحكم وتحديد صفات الحاكم بل تعدى دوره إلى تحديد مقومات الدولة وعوامل التقدم وأسباب الإنهيار، وفى هذا الإطار وضع ابن باديس تصوراً متكاملاً للدولة العربية الواحدة التى تقوم على دعامة العلم والإيمان وتحكمها قوانين واحدة وثابتة فى إطار عام من الوطنية والعروبة والإسلام .

إن تناسق المبدأ السياسى ونجاح ابن باديس فى تحقيقه ثم تحديده لمبادىء

---

(١) راجع الباب الأخير من هذا البحث حول الخلافة الإسلامية.

المنهج الإصلاحى الشامل، ووصفه للتصور القابل للتطبيق حول ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع العربى والدولة العربية الواحدة قد دفعنا إلى عقد العديد من المقارنات بين المنهج الباديسى وبين ما وضعه فلاسفة اليونان القدامى من تصورات حول الدولة المثالية ومفهوم المواطنة، مع الإشارة إلى ما إستحدثه ابن باديس من إضافات فى وظائف الدولة وصفات الحاكم وعوامل التغير والإصلاح .(١)

ويمكن القول إن نجاح ابن باديس فى تطبيق منهجه الإصلاحى يرجع أساساً إلى موقفه السياسى وشخصيته، وهو ما أكده الدكتور محمود قاسم فى كتابه :عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية حين يقول : إن فلسفة ابن باديس فلسفة ثورية هدفها إتخاذ موقف من كل عناصر الهدم الأخلاقى والدينى والإجتماعى، فرجال الطرق الخارجة عن الدين عنصر هدم ومنهم من أصبح ألعوبة فى يد الإستعمار، وكذلك رجال التبشير المسيحى، ودعاة التجنيس والإندماج والفرنسة لذا لجأ ابن باديس إلى إفساد خطط الإستعمار ضد القومية العربية والإستقلال فلجأ ابن باديس إلى زيادة وتطوير وسائل النهضة العلمية والدينية .

ويصف ابن باديس نجاحه فى هذا الوقت فيقول : حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا فى ذلك من صعاب وقد بلغنا غايتنا.(٢)

---

(١) راجع الباب الأخير من هذا البحث حول وظائف الدولة وأطوار النشوء.

(٢) من مقال تركى رابح : ابن باديس والشخصية الجزائرية وفى الأصالة العدد الرابع وفى ابن باديس الزعيم الروحى، د. قاسم ص ٩٩، ١١١.

ثانيًا : المعرفة والحكمة :

ترددت الآراء حول شخصية ابن باديس المصلح الفيلسوف بين فريقين أحدهما يؤكد على أن ابن باديس فقط صاحب منهج إصلاحى وليس فيلسوفاً بالمعنى التقليدى ، أما الفريق الآخر فيؤكد على أنه فيلسوف حقيقى ولهذا نطلق عليه اسم المصلح الفيلسوف ، وهذا الفريق يستدل على صدق رأيه بأدلة منها :

* قدرته على تصوير الواقع العربى وتحليل تاريخه ونشأته وعوامل ضعفه وقوته، وأدلته المقنعة على ضرورات التغيير والتطوير ، وإثباته بأن العقيدة والعقل مفتاح كل إصلاح وتغيير .

* قدم نموذجاً للفلسفة الدينية التى مصدرها القرآن والسنة ومذهب السلف الصالح من الأمة ، من خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة فى صورة منهج متناسق مع الحياة والفكر يعكس تأمله الجيد لعناصر الحياة والعمران والاجتماع ، فى تأليف تام بين العقل والدين والعلم والحياة دون تفريط فى شىء منهما ، مما دفع عمار الطالبى ومحمود قاسم وغيرهما إلى وصف ابن باديس بالفيلسوف والمصلح ، رغم أنه ليس فيلسوفاً أكاديمياً ممن شيّدوا نسقاً أو بناءً فكرياً يرتكز على مذهب معين أو مجموعة من الفروض الفلسفية المسبقة .

* قدم مفهوماً عاماً للحكمة ووصفاً دقيقاً للحكيم مؤكداً بأن الفلسفة الإسلامية هى علم الحكمة وأن الفيلسوف بحق هو الحكيم ، والحكيم عنده هو الموصوف بالحكمة ، والحكمة فى مفهومها العام هى العلم الصحيح الذى يمسك صاحبه عن الجهالات والضلالات والسفالات فيكون ذا إدراك للحقائق قويم ، وذا خلق كريم وعمل مستقيم ، لا يحكم إلا عن تفكير ولا يقول إلا عن علم ، ولا ينقل إلا عن خبرة وبصيرة فإذا نظر أصاب وإذا فصل أطاب وإذا نطق أتى

بفصل الخطاب»[١] .

* قدم مفهوماً عميقاً للمعرفة العلمية فى إطار فلسفة التوحيد ليعارض بالدليل العقلى الذين أنكروا السببية ، والقائلين بالمعرفة الغيبية ، والمعرفة العلمية عنده تبدأ بمرحلة التأمل فى كل ما يدور فى الكون من ظواهر ، وهذا التأمل هو الذى يولد الشوق والرغبة فى البحث واستجلاء حقائق الكون ومنافعه .. وهذا التأمل لا يكون إلا بالعقل الذى أمرنا الله باستخدامه (فى التفكير والتأمل والاعتبار) لأن استخدام العقل فى هذه المعرفة هو الذى يثبتها ويقويها .

ويصف ابن باديس هذا النوع من المعرفة بأنها نوع من التربية لأنها تقوم على العلم قبل العمل ، وأنها مكتسبة عن طريق العقل وهى متغيرة ومتطورة لارتباطتها بالإنسان المتطور والمتغير* .

وعارض ابن باديس القائلين بالمعرفة الغيبية وأكد أن هذه المعرفة تقوم على الظن وأنها غير يقينية وهى نوع من الوهم ، ثم يحذرنا من الاعتقاد بها ، أو الاعتماد عليها لأن ذلك من أسباب التأخر والبعد عن حقيقة العلم واليقين والدين، ويؤكد على أن الاعتقاد فى هذه المعرفة والتمسك بها والاعتماد عليها أكبر مخالفة للسنة النبوية ، وفى مخالفة السنة كل بلاء لحق بالمسلمين حتى اليوم .

كما عارض الذين أنكروا السبَبية الكونية ، مؤكداً على أن إنكارها هو إنكار للحكمة الإلهية والنظام الكونى أصلاً ، لأن السببية الكونية هى التى تحدد علاقة الإنسان الحر أو المجبر بالله ، وأن هذه السببية كلها عدل وحكمة تظهر بجلاء فى

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره : عمار الطالبى جـ ٢ ص ٥٩٠ .

* يمكن مقارنة رأى ابن باديس فى المعرفة والحكمة بآراء العديد من الفلاسفة الحسيين أو الطبيعيين الذين قالوا بثبات المعرفة أيو بنوع واحد من المعرفة التى لاتتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان لأنها تعتمد على الطبيعة وحدها لاعلى العقل أو حتى العادات والتقاليد والخبرات المتقلبة .

القدر ، إذ القدر – كما يقول ابن باديس – كله عدل وحكمة وما يصيب العباد فهو جزاء أعمالهم وقد تدرك حكمة القدر ولو بعد حين وقد تخفى لأن من أسمائه سبحانه العادل الحكيم .

* قدم نوعاً من الفلسفة القرآنية بوصفها فلسفة الحكمة الإلهية ، على اعتبار أن القرآن الكريم يشمل كل علم وكل حكمة وأن الله تعالى يدعو إلى الحكمة وهو مصدر كل حكمة لقوله تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا ألوا الألباب ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[٢] .

ويقرر ابن باديس : أن حب الحكمة هو فى حقيقته حب لله وحب للعلم وحب للحرية ، فهى الحكمة التى أمرنا الله بحبها والاعتقاد بها والعمل بها ، ودعانا إلى الإيمان بها محمد صلى الله عليه وسلم فى رسالته الداعية إلى المحبة والحكمة والعلم . ودعانا فى أحاديثه وترجمتها أفعاله الشريفة .

* وهذا الفريق يرى إمكان وصف عبارات ابن باديس بالحكمية وكذلك نظرياته فى الأخلاق والدين والسياسة والاجتماع كلها حكمة وفى باب الأخلاق وأرائه فى الفضائل وخاصة التعاون والوفاء والصفاء بأنها من الحكمة ... وإن ابن باديس قد نجح فى عرض الحكمة الإسلامية الإلهية الداعية إلى الجدل بالحكمة ، وكذلك التأمل والاعتبار بالعقل كلها من الحكمة ، وأن الله تعالى وصف نفسه باسم الحكيم وأنه تعالى واهب الحكمة لمن يشاء من الأنبياء والصالحين ، وأن هذه الحكمة تتحقق بالفعل مع مسايرة الطريق المستقيم بوصفه طريق الهداية والاستقامة واليقين* .

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .

(٢) البقرة : ٤٢ .

* راجع آيات الحكمة والحكيم فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة . انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضعه محمد فؤاد عبد الباقى ص ٢١٣ – ٢١٥ .

* نجاحه فى تطبيق الفلسفة القرآنية على مجالات عديدة جمعت بين الأخلاق والسياسة ، وربطت بين العلم والدين وتطهير العقائد بالتفسيرات الواضحة وكشف مواطن الذلل فى التأويلات الفاسدة لأصحاب الطرق الصوفية الذين أدخلوا العديد من الخرافات فى الدين . ثم تحديده للعديد من قضايا الفكر الإسلامى المختلف حول تفسيرها كالسببية والقضاء والقدر والإيمان وغيرها .

ويصف ابن باديس موقفه هذا فيقول : لقد عملنا على فضح مفاسد القديم وتحطيم كل ما هو مزيف وغريب عن الإسلام وبث كل ما هو جديد من الفكر الحر .. كما أكد بوضوح على أن بناء الإنسان العربى ليس فى حاجة إلى دين الطرقية السالب ولكن فى حاجة إلى وعى وعقيدة سليمة وسياسة حكيمة وحرية فكرية أى أنه فى حاجة إلى تربية وتغيير وإصلاح وهذا لا يتم إلا بتثقيف العقول وبث روح التفاؤل»[١] .

* عقلانيته الواضحة التى أسس عليها منهجه فى الجمع بين النظرية والتطبيق ، وما قدمه من آراء وأفكار قابلة للتطبيق خاصة عندما جعل الحياة الإنسانية وعلاقات الأفراد والأمم موضوعاً لتأملاته العقلية وتفسيراته المقنعة ، وعندما جعل العقل أداة للفهم والتصحيح ، فكانت عقلانيته سمة بارزة فى جميع مواقفه وآرائه ، وأن هذه العقلانية هى التى هيأت له فرصة الاهتداء إلى أسباب التخلف وتحديد الآفات الاجتماعية وكيفية علاجها بنشر العلم والفضيلة ومحاربة الجهل والرزيلة .

وهكذا برز دور ابن باديس المصلح الفيلسوف فى الجمع بين الفلسفة والإصلاح وليكون واحد من رواد الفكر والثقافة فى العالم العربى الذين حملوا مشاعل الحضارة والعلم والنهضة ، وكان فكره الموسوعى وشمول منهجه وراء

---

(١) ابن باديس : الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية : د. محمود قاسم ص ٣٧ .

وصفه بالمصلح الاجتماعى والمفكر الإسلامى والأديب الصحفى والثائر الوطنى .. إلى آخر الصفات التى وصفه بها رجال العصر من أدباء وفلاسفة . وإقرارهم بأنه كرجل دين كان القرآن والسنة أساساً ومنهجاً ومنطلقاً لبداية فكره الفلسفى ، ومحور لآرائه فى المعرفة والحكمة والسياسة ، ولهذا لم يقف ابن باديس عند حد وضع التصورات وخطط الإصلاح بل كانت عقلانيته وواقعية تفكيره الإصلاحى نابعة من معايشته لقضايا المجتمع وتحولاته ، هذه المعايشة جعلته أكثر ميلاً إلى الفكر العملى والتطبيق الفعلى لمنهجه ومبادئه وآرائه فى الحق والعدل والمساواة ، وكان ذلك وراء ابتعاده عن التفلسف النظرى المجرد ...

ولذا قال البعض : إن الإضافة التى أضافها ابن باديس لحركة الفكر الإصلاحى ومنهجه هى البعد السياسى وقدرته على تطبيق المبادئ الأخلاقية والتربوية .

* * *

ثالثًا : الإصلاح والتربية :

لقد بدأ الاهتمام الفعلى بآراء ابن باديس التربوية وأثرها الإصلاحى فى بداية النصف الثانى من هذا القرن وبالتحديد فى الفترة بين ١٩٦٥ ، ١٩٧٥ ، حيث ظهرت بعض المقالات والندوات التى تناقش أفكار ابن باديس الإصلاحية فى الاجتماع والسياسة والشخصية وآثارها التربوية* .

وكان المحور الذى دارت حوله هذه الآراء منهجه العلمى الذى رسمه للخروج من حالة التخلف والجهل والضعف إلى حالة العلم والنهضة والقوة ، وما وضعه ابن باديس من وسائل لتقويم سلوك الأفراد ، وتوجيههم للبناء والحضارة مؤكداً على أن التربيةوتهذيب النفوس هى الطريق الأمثل للإصلاح .

ويمكن تحديد ملامح الفكر التربوى عند ابن باديس فيما يلى :

١ – ضرورة الاهتمام بالإنسان كهدف رئيسى عام ، علماً وعملاً وفكراً وسلوكاً ، وهذا الاهتمام يتمثل فى ضرورة التعليم المدرسى والتعليم بالقدوة وتنظيم الجماعة وخلق الوعى العام .

وفى هذا يقول ابن باديس : العلم قبل العمل ، ومن دخل العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال .. وقال أيضاً : إن ما نأخذه من الشريعة المطهرة علماً وعملاً فإننا نأخذه لنبلغ به ما

---

* راجع فى ذلك : أضواء على الفكر العربى والإسلامى : أنور الجندى ط ١٩٦٦ ، ابن باديس : حياته وآثاره : عمار الطالبى ط ١٩٦٨م .

– ابن باديس والشخصية الجزائرية : مقال تركى رابح فى الأصالة ع.٢ مايو ١٩٧١م .

– ندوة الأصالة : مناقشة حول كفاح ابن باديس ، ع ٢ مايو ٧١ ص ٧٤ – ٧٨ ، ومقال د. عمار الطالبى فى الأصالة بعنوان : النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس .

– صفحات من الجزائر صالح خرفى ص ٧٣ .

– عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية : عمر بن قنية ط الجزائر ١٩٧٤م .

نستطيع من كمال فى حياتنا الفردية والاجتماعية ، والمثال الكامل على ذلك كله هو حياة محمد صلى الله عليه وسلم فى سيرته الطيبة .

ولأن التعليم هو الوسيلة الأساسية لإحداث كل تغير وإصلاح ، استخدم ابن باديس لتحقيقه كافة الوسائل كإلقاء الدروس والتفسير وتعليم كتب السابقين وشرحها واستنباط القواعد والحكم منها ، ومثال ذلك تدريسه لكتاب الشفاء للقاضى عياض ، وإحياء علوم الدين للغزالى ، والعواصم من القواسم لأبى بكر بن العربى ، وغيرهم ... ثم اهتمامه بأسلوب التذكير كأداة للتفهيم يعتمد على التفكر والتأمل وهذه العملية لا غنى للعقل عنها كما أن لها أبعادها الاجتماعية .. ويعلل ابن باديس أهمية العقل فى إتمام عملية التذكير والتفكير فى آلاء الله وآثاره وملاحظة التغيرات الاجتماعية وأطوار الأمم فيقول : «إن العقول فى حالة البعد عن التفكر والتذكر كثيراً ما تكون مغلولة بقيود أهوائها محجوبة بحجب غفلتها فتعمى عن تلك الدلائل والآثار ويكون تورطها فى كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك الآثار ، كما أن التذكر هو عملية تفكر وتأمل فى دلائل العظمة والوحدانية ، ولذا فإن تمام التوحيد لا يكون إلا بالتفكر فى سر دلائل الربوبية والآلوهية وإفراد الله بالعبادة ، لأن توحيده فى ربوبيته يقتضى العلم بأنه لا خالق غير الله ولا مدبر للكون ولا متصرف فيه سواه ..

ويشير ابن باديس إلى أهمية التعليم بالقدوة وأثره فى إصلاح النفوس فى مقال بعنوان «إصلاح التعليم أساس الإصلاح» فيقول : «لن يصلح المسلمون إلا إذا صلح علماؤهم لأنهم بمثابة القلب للأمة ، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم» . فالتعليم فى نظره هو الذى يطبع المتعلم بالطابع الذى يكون عليه مستقبل حياته ، وما يستقبله من عمله لنفسه ولغيره ولن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوى فى شكله وموضوعه ومادته وصورته ، فقد صح عن النبى

فيما رواه مسلم «إنما بعثت معلماً»[١] .

وهذا يعنى أن إصلاح المجتمع يتوقف على التعليم وتذكير الإنسان وتنبيهه بما فى التاريخ من عبر ودروس واستخدام العقل فى إدراك الدلائل والآثار الهادية للإيمان واليقين .

٢- شمولية الإصلاح : أى أن يكون الإصلاح كلى لا جزئى ، ويتناول كل ميادين التوجيه الأخلاقى والثقافى والسياسى للفرد ، لأن الانصراف لإصلاح جانب واحد فى الفرد أو المجتمع لا يؤدى إلى إصلاح حقيقى بل يؤدى إلى التخريب والهدم . ولهذا فإن تحقيق هذه الشمولية يتطلب :

أ- موقف حاسم من عناصر الهدم الأخلاقى والدينى والاجتماعى ورسم الخطوات اللازمة لمواجهته .

ب- إثبات مدى الارتباط بين الفكر والسلوك ، بين الاعتقاد والعمل . ولهذا فهو يؤكد دائماً على ضرورة أن يكون العلم قبل العمل ومن دخل العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ، ثم يؤكد هذا بدليل تاريخى على اعتبار أن المنهج الذى نجح به المسلمون الأولون فى تغيير العالم إنما هو سلوكهم وتطبيقهم الإسلام على أنفسهم قبل غيرهم فى الحياة .

جـ- ضرورة تعاون الإرادة والفكر والعمل ، فهذا التعاون سبيل بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة ظاهراً وباطناً ، لأنه يحقق تكامل الجانب الخلقى والعقلى والعملى والعضوى فى الإنسان ، ويؤكد ابن باديس ذلك بقوله : «إن الكمال الإنسانى متوقف على قوة العلم وقوة الإرادة والفكر والعمل فهى أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد ... وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاثة الإرادة والفكر والعمل ، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للإنسان منها ، فالعمل متوقف على البدن ، والفكر متوقف على العقل ،

(١) ابن باديس : حياته وآثاره : عمار الطالبى جـ ١ م ١ ص ١٠١ .

والإرادة متوقفة على الخلق ، فالتفكير الصحيح والإرادة القوية من الخلق المتين والعمل المفيد من البدن السليم ، ولهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة : عقله وخلقه ودينه ودفع المضار عنها ، فيثقف عقله بالعلم ....[١] .

٣- الاهتمام بالجانب النفسى ، وهو ما يسميه ابن باديس بالجانب الباطنى، وهذا الجانب هام لأن الباطن عنده أساس الظاهر وإصلاح النفوس هذا يتطلب :

أ- الاعتماد على الحجة والإقناع والمصارحة والدعوة بالتى هى أحسن ، ووضع التكاليف والأوامر الإلهية المتوجهة للنفس الإنسانية فى صورة وصايا أخلاقية تدعو إلى التحلى بالصبر والثبات والصدق والرحمة والمحبة لأن ذلك سبيل تحقيق الصفاء والراحة للنفس ، وفى هذا يحذر ابن باديس من وسائل العنف والشدة ، لأن إصلاح النفوس لا يكون بالشدة بل بالرفق والصراحة والصدق والتوبة، ويحذر ابن باديس حتى من استخدام أسلوب التقريع الذى ينفر الناس عند الوعظ وتقبل النصائح .

ب- ضرورة النظر فى النفس وفهمها وإصلاحها فذلك أمر إلهى ومطلب إنسانى ، ولذا يعتبر ابن باديس أن العناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس لأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها ، استشهاداً بقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[٢] .

ويرى ابن باديس أن فهم النفوس وإصلاحها دعوة إلهية ، لأن الله تعالى أمرنا بالنظر فى النفس لفهمها وتوجيهها ، فقال تعالى: ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[٣] ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساسها ﴾[٤] .

---

(١) آثار ابن باديس جـ ١ م ١ ص ١٠٤ ، جـ ٦ ، م ١٢ ، ص ٣٤٩ .

(٢) الشمس : ٧ . (٣) الذاريات : ٢١ .

(٤) الشمس : ٧.

فكان هذا الاهتمام القائم على النظر فى النفس والتأمل الباطنى لقدراتها لإدراك حقيقتها وطبيعتها ومن ثم توجيهها حسب قدراتها ، ماذا تستطيع أن تفعل وما لاتفعل ، ولهذا ارتبط الفعل بالقدرة ، كما ارتبط التكليف حسب هذه القدرة للنفس كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها ﴾(١) .

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾(٢) .

وهنا يشير عمار الطالبى إلى مدى نجاح ابن باديس فى إثبات أهمية الاهتمام بالنفس ومعرفة قدراتها ، وأن هذا الرأى يتعارض مع دعاة الإصلاح الاجتماعى فى إرجاعهم الإصلاح إلى إصلاح المؤسسات الاجتماعية ، أما ابن باديس فيثبت أن الإنسان والنفس أولى وأهم من إصلاح المؤسسة كما يشير إلى أن ابن باديس لم ينكر أهمية إصلاح المؤسسات التربوية والاجتماعية أو البيئة عموماً ، كما لم ينكر أثرها الفعال فى توجيه سلوك الفرد . بل إنه حاول التأكيد على الإصلاح الشامل الذى يتطلب الاهتمام بالإنسان مع الاهتمام بالمؤسسات والبيئة فى نفس الوقت ، ولكن ينبغى البدء بالإنسان(٣) .

٤ – القرآن هو القاعدة الأساسية لبناء الفكر وتوجيه السلوك ، وذلك يعنى أن التربية والإصلاح تكون بما فى القرآن من علم ومعرفة والتزام بتعاليمه وتطبيقه لمنهجه ، والاعتماد على لغة القرآن وما فيه من علم وبيان ودعوة صريحة لاستخدام العقل فى النظر والتفكر والتدبر والاعتبار ، والاعتماد على أصول البيان العربى والتعمق فى فهم قوانين النفس البشرية وسنن الاجتماع الإنسانى وتطور تاريخ الأمم، كما يعنى أيضاً ضرورة الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم الذى كان خلقه القرآن وينطق بالوحى والصدق والبيان ... وهذا كله فى معنى قول ابن باديس : أنتا

---

(١) الطلاق : ٧ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

(٣) آثار ابن باديس جـ ١ م ١ ص ١٠١ .

نربى تلامذنا على القرآن من أول يوم .

– ولتطبيق هذه القاعدة عملياً حاول ابن باديس ربط التربية بالإصلاح الاجتماعى ، وشرع فى تنفيذ تعاليم القرآن فى مواجهة الآفات الاجتماعية والنقائص الأخلاقية ، وقدم نظرية متكاملة فى الأخوة الإسلامية والترابط الاجتماعى فى ظل نزعة إنسانية تقوم على ركائز ثلاثة هى : وحدة الأديان والوحدة البشرية ووحدة الأوطان ، وأن هذه الثلاثة تقوم على دعامتين أساسيتين هما الحب والأخوة ...

وأثبت عملياً أن التدهور الاجتماعى راجع إلى عدم تطبيق قواعد الإسلام وانفصال الإنسان العربى عن الحقيقة القرآنية بوصفها رمز التكامل لجوانب الحياة واستمرارها .

وفى هذا الإطار أيضاً قدم ابن باديس تفسيراً كاملاً للقرآن قدمه درساً وإملاءً على تلاميذه ، حاول فيه بث مبادئ ثورته الفكرية التى تعتمد على التربية فى تكوين القادة ، ومواجهة القضايا الفكرية والعقائدية ، وخاصة مباحث التوحيد الرئيسية فى الألوهية والربوبية والوحدانية ، كما حاول حسم مسائل الخلاف التقليدية فى مسائل الصفات والقدر والاعتقاد والعمل ...

– ويصف عمر بن قنية مدى نجاح ابن باديس فى منهجه الإصلاحى والتربوى فيقول : ابن باديس كان المصلح الجزائرى الأول الذى برز بوضوح على كل سابقيه ورجل التربية الذى تفرغ لمهنته تفانياً وأستاذاً لكل أبناء القطر فى مختلف جهاته ... لقد أدت أفكار ابن باديس دورها على خير وجه ولا يزال لها أثرها العملى المباشر وسيبقى لها شأنها ، فكان الرجل المثالى فى نكران الذات مما يجعله بحق يستحق الثناء والخلود[1] .

---

(١) عمر بن قنية : عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية ص ٧ ، ٣٥ .

وكان الأثر الإيجابى من تطبيق هذه القاعدة فى تحول بعض أصحاب الطرق الصوفية التى كانت تصرف الناس عن العمل وتحبب إليهم التواكل والعزلة ، أن تحول هؤلاء عن مبادئهم ، وانضموا إلى صفوف العلماء ، ليعملوا معاً على نشر الدين الصحيح ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة فى الدين ، وبث روح المقاومة فى الشعب ، وانتشار دعوة الإصلاح وظهور طبقة المثقفين .

ويصف ابن باديس هذا الموقف بقوله : لقد عملنا على فضح مفاسد القديم وتحطيم كل ما هو مزيف وغريب عن الإسلام ، وبث كل ما هو جديد من الفكر الحر ..

كما أكد بوضوح على أن بناء الإنسان العربى ليس فى حاجة إلى دين الطرقية السالب ولكنه فى حاجة إلى وعى وعقيدة سليمة وسياسة حكيمة ، وحرية فكر أى أنه فى حاجة إلى تربية وإصلاح ، وهذا لا يتم إلا بتثقيف العقول وبث روح التفاؤل»[1] .

ولولا ظروف المجتمع الجزائرى أيام ابن باديس وخضوعه للاستعمار لكانت الفرصة لتطبيق مناهجه التربوية والتعليمية ، وبقدر ما سمحت الظروف السياسية آنذاك قدم منهجاً للتعليم يقوم أساساً على ناحيتين : إحداهما تربوية والأخرى تعليمية ، ففى الناحيةالتربوية كان القيام بتربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم ، وفى الناحية التعليمية اهتم بتثقيف الأفكار بالعلم وتعليمهم الصنائع ، إلى جانب الاهتمام باللغة العربية والأجنبية وقسم المعلمات إلى طبقات واشترط فى تعليم المعلم ، والخطيب المعرفة الكاملة بأساليب التفهيم ، وفهم نفسية المتعلمين وحسن التنزل لهم ، والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم حسب درجاتهم واستعداداتهم ، مع البعد عن المصطلحات

---

(١) راجع الفصل الأول من هذا البحث" ، وفى ابن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية . د. محمود قاسم ص ٣٧ .

الفقهية التى لا يفهمها الطلاب مع الاهتمام بالمعنى .

وإلى ابن باديس يرجع الفضل فى تطوير مناهج التعليم وأساليب التدريس وإدخال نظام تقسيم التعليم والمتعلمين إلى مراحل وأقسام تخصصية مع ضرورة تعديل المناهج الدراسية بما يتناسب وكل قسم ، كما أدخل إلى جانب علوم اللغة والدين والتفسير والحديث علوماً أخرى مفيدة كالتاريخ والحساب والجغرافيا والفرائض ودعا الجميع إلى ضرورة الاطلاع على مدارك المذاهب حتى ينظروا إلى الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة لا من عين المذهب الضيقة»[1] .

* * *

(١) راجع ابن باديس : حياته وآثاره جـ ١ ص ١٦٦ وما بعدها ..

obeikandl.com